الجزء الثاني

عيون الخطب الافرنجية

obeikandl.com

obeikandl.com

خطبة برقليس

كان برقليس (٤٩٥ — ٤٢٩ ق . م .) من خطباء اثينا وأحد رجالاتها المعدودين المحبوبين عند جمهور السكان . وهذه الخطبة القاها في السنة الاولى من الحرب البلوبونيزية رثاء للجنود الذين ماتوا في هذه الحرب سنة ٤٣١ ق.م

اننا سعداء بنظام حكومي لسنا نحتاج به الى ان نحسد جيراننا لما عندهم من القوانين لأنه نموذج يحتذي به الآخرون بينما هو اصيل في اثينا . وهذا النظام الموكل تنفيذه الى جميع الأمة وليس الى عدد قليل منها يسمى الديموقراطية . فهما اختلف كل فرد منا عن الآخر في شؤونه الخاصة فنحن سواء في التمتع بمزايا قوانيننا ونزداد مزايا بمقدار تفوقنا . وشرف الاعجاب ليس مقصورا على أسرة واحدة بل للجميع أن يحصلوا عليه باستحقاقهم الشخصي . ولا يقعد الفقر بأحد يبغي خدمة بلاده و يستطيع هذه الخدمة فينال الشهرة بعد الخمول . فلكل منا الحق في دخول وظائف الحكومة دون أن تعترضه عقبة . ولنا أن نعيش حياتنا الشخصية في تبادل الحب دون ان تنالنا شبهة . ولسنا نغضب من جارنا اذا اتبع ميوله ولسنا نستاء منه ذلك الاستياء الذي وان لم ينزل به عقاباً فأنه يحدث له الماً . فنحن احرار في حياتنا الشخصية ولكننا لا نجرا مهما كانت البواعث على مغاضبة الجمهور لما نحمل في صدورنا من احترام الحكام والقوانين . وبخاصة تلك القوانين المدونة التي يقصد منها التفريج عن المظلوم وتلك التي لم تدون والتي تعود مخالفتها بالعار والفضيحة على من يخالفها

وقد هيأت لنا قوانيننا أوقات فراغ نمتع فيها عقولنا برؤية الملاهي العمومية ومشاهد التضحية طول العام وهي تؤدى بأبهة ورشاقة لا تبقيان في قلوب الناظرين محلا للهم أو الغم . وقد صارت عظمة اثينا مدينتنا هذه سبباً في جلب جميع حاصلات الأرض باجمعها اليها فنحن نتمتع باطايب بلادنا كما نتمتع باطايب سائر بلاد العالم

ولسنا في حاجة الى شواهد تثبت اننا نستحق هذه المكانة . فان لنا حججاً قوية واضحة على ذلك وهي موضع اعجاب العصور الحاضرة والمستقبلة . فلسنا في حاجة الى شاعر مثل هوميروس لكي يثنى بمديحنا كما أننا لسنا في حاجة الى شاعر آخر لكي يزين تاريخنا بعقود القريض لأن الرأي في مآثرنا لا يكون عندئذ رأياً صحيحاً نزيهاً . فقد فتحت اساطيلنا كافة البحار وقد اخترقت جيوشنا جميع الأرضين وتركت وراءها آثاراً ابدية لعداوتنا او صداقتنا

هذه هي الدولة التي دافع عنها هؤلاء الجنود الذين قضت عليهم بسالتهم والذين استهانوا بحياتهم فقاتلوا قتال الشجعان وماتوا موت البسالة . واني مقتنع بان الذين لم يقتلوا على قدم الاستعداد متأهبون لأن يبذلوا نفوسهم في هذا السبيل . ولهذا السبب تبسطت في بيان المزايا الوطنية لكي ابرهن لكم بأوضح ما يمكن اننا في حربنا الراهنة نخاطر باكثر مما تخاطر به امة ليس لها هذه المزايا الوطنية الثمينة ولكي ابين لكم مقدار ما يستحقه هؤلاء الجنود من الشكر والحمد اللذين قدمناهما لهم . وهذا الاحتفال الذي تحتفل به الدولة وتعلن فيه ثناءها وحمدها انما مرجعه الى بسالة هؤلاء الجنود ومن يماثلهم من

الرجال . وهذا الثناء قد يمكن أن نعده مبالغاً فيه اذا نحن أغدقناه على غير هؤلاء الجنود من الاثينيين . فهذا الموت الذي قد انتهوا اليه اكبر شاهد على جدارتهم . وعلينا دين يجب أن نوفيه بتكريم الرجال الذين ارصدوا حياتهم للقتال عن اوطانهم مهما كانوا أحط من غيرهم في مضمار الفضائل ما داموا قد حصلوا على فضيلة البسالة فان مآثرهم الاخيرة تمحو جميع مساوئهم السالفة لانها تشمل جمهور الامة بينما المساوىء لا تعدو العدد القليل . ولسنا نجهل انه لم يحجم احد من هؤلاء عن الخطر مؤثراً الملاذ التي تجتنى من عيشة السلام الوفيرة . كما انه لم يضن احد بحياته غروراً بالامل بأن الفاقة الراهنة قد تزول و يأتي مكانها الرخاء والسعة . كلا . انما كانت تستعر في قلوبهم شهوة واحدة . ألا وهي الانتقام من اعدائهم . لقد فروا من لومة الجبن وتصدروا لصدمة المعركة ثم حملوا وهم لا يروعهم روع وقد عقدت آمالهم النصر لهم فوقعوا وهكذا أدوا الواجب الذي يدين به كل شجاع لبلاده

واما أنتم الذين لم تقتلوا فشأنكم أن تصلوا الى الآلهة لكي يكون حظكم خيراً من حظ هؤلاء : ولكن عليكم أن تحتفظوا بهذه الروح وتلك الحماسة اللتين تقاتلون بهما عدوكم . ولست احتاج الى بيان فائدة هذا في خطبة مثل هذه فان أي انسان يتلهى بالالفاظ يستطيع ان يقول لكم ما تعرفونه انتم من قواعد مجاهدة العدو . ولكني أدعوكم الى أن تجعلوا عظمة أمتكم قبلة أفكاركم . فاذا أدركتم هذه العظمة فاذكروا أنها نبتت بالابطال الشجعان — برجال عرفوا واجبهم واستحوا من العار وكانوا اذا ما اخفقت جهودهم خافوا الفضيحة على بلادهم فلم يضنوا بشيء من شجاعتهم .

انهم اهدوا حياتهم الى الجمهور ونالوا منه الحمد الذي لا يبلى . ولكل منهم ضريح عظيم ـ ولا أعنى ذلك الضريح الذي يضم رفاتهم الرميمة ـ وانما اعنى ذلك الذي يضم شهرتهم وذكرهم. وهو ضريح يذكر كلما ذكر الشرف . فهذه الارض باجمعها ضريح عظماء الرجال

خطبة لديموستينيس

كان ديموستينيس (٣٨٢ ـ ٣٢٢ ق . م) خطيب اثينا بل زعيم خطبائها . وكان قبل أن عرفه جمهور اثينا رجلا خاملا ضعيف البنية خائر الصوت ليست لحركته لباقة ولا في لسانه طلاقة الخطيب . فلما اعتزم الخطابة « أخذ يقوي رئتيه وصوته بالصياح وهو يصعد في الجبال الوعرة ، أو كان يقف على شاطىء البحر فيرفع صوته فوق صخب الامواج . وتغلب على عاهة النطق بأن كان يمارس الكلام وفي فيه حصى . وتعلم أصول اللباقة ورشاقة الحركة بأن كان يقف امام مرآة وهو يخطب »

قال عنه فيلون : « اننا لا نفكر في كلماته بل نفكر في الاشياء التي يقولها : فهو يبرق وهو يرعد بل هو سيل يجرف كل ما امامه . فلا نستطيع أن ننتقده او نعجب به لاننا قد فقدنا حكمنا على مشاعرنا »

وقد كانت مهمة ديموستينيس التي عاش من أجلها ومات في سبيلها ايقاظ ضمير الامة الاغريقية وتنبيهها الى الخطر الذي يحيق بها من فيلبس والد الاسكندر المقدوني الذي كان ينوي ضم بلاد الاغريق الى مملكته . وكان قد رشا خطباء اثينا لكي لا يندوا باغراضه فسكتوا وابى ديموستينيس ان يرتشي ويخون وطنه . وقضى حياته وهو يحرض الاثينيين على مقاتلة فيلبس حتى دس له هذا الملك من يطارده . ففر الى احد المعابد وهناك تناول السم بيده ومات

قال يحرض الاثينيين على قتال فيلبس :

ان بينكم أيها الاثينيون من يعتقد انه يمكنه أن يربك الخطيب بقوله : «فماذا نفعل اذن ؟» وعلى هذا السؤال اجيب : « لا تفعلوا

شيئاً مما تفعلونه الآن وافعلوا كل شيء لم تفعلوه » وانه لجواب حق وصدق . ولكني سأزيدكم ايضاحا ولعل أولئك الذين يسارعون الى السؤال يسارعون أيضاً الى العمل . فاذكروا أيها الاثينيون اولا انه من الحقائق التي لا مراء فيها ان فيلبس قد نكث عهودكم وأعلن الحرب عليكم . فدعونا اذن من التثالب عن هذا الموضوع . ثم اذكروا انه عدو اثينا الألد ـ عدوها الذي يكره أرضها وأسوارها بل يكره اولئك الذين يغتبطون منكم بأنهم قد نالوا حظوة عنده

فان أخشى ما يخشاه فيلبس وأمقت ما يمقته هو حريتنا . هو نظامنا الديمقراطي . فلكي يقضي على هذه الحرية وهذا النظام يهيء فيلبس جميع شراكه ويدبر جميع تدابيره . او ليس يجري على مبدأ واحد في كل أعماله هذه ؟ انه يعرف تمام المعرفة انه لو أخضع بلاد الاغريق كافة وعمها بفتوحاته فانه يظل غير آمن عليها ما دامت ديمقراطيتكم صحيحة لم تمس . وهو يعرف انه لو أصابته هزيمة من تلك الهزائم التي تقدرها الاقدار لبني الانسان فان جميع هذه الامم التي قرنها عنوة الى نيره تسارع الى الانضواء اليكم . أفي العالم ظالم يجب رده ؟ هاكم أثينا . أفي العالم أمة مقهورة تحتاج الى رد حريتها اليها ؟ هاكم اثينا ما اسرعها الى الاسعاف . ففيم نعجب من فيلبس اذا كان لا يطيق صبراً على هذه الحرية الاثينية التي تقف موقف الجاسوس ينظر الى شروره وآثامه ؟ فايقنوا أيها المواطنون انه عدوكم الذي لا هوادة عنده . وانه انما يعبي جيوشه ويهيء عدده وينصب اشراكه لكي يقاتل اثينا

فماذا عليكم ان تفعلوا باعتباركم رجالا عقلاء قد اقتنعتم بصحة

هذه الحقائق ؟ يجب عليكم ان تنفضوا عنكم هذا السبات القاتل وان يتبرع كل منكم بنسبة ما يملك وان تطلبوا من حلفائكم ان يتبرعوا ثم تستعدوا للاحتفاظ بالجنود المسلحين حتى اذا كان فيلبس قد تهيأ لغزو الاغريق واخضاعهم يكون لديكم جيش تمدونهم به وتخلصونهم منه . ولا تخبروني عن المتاعب والنفقات التي يحتاجها هـذا العمل . فاني لست انكرها . ولكن اعتبروا الخطر الذي يتهددكم واعتبروا مبلغ ربحكم في ما اذا انضممتم للدفاع عن قضية الوطن الى سائر الاغريق منذ الآن . والحق انه لو اكد لكم احد الآلهة ان فيلبس لن ينالكم باذى اذا بقيتم وادعين في مقامكم لا تحفلون بما يعمل فاني اقول لكم والسماء تشهد علي انه من الهوان ومن الصغار ومما هو دون كرامة دولتكم ومجد آبائكم ان تضحوا مصالح وطن الاغريق باجمعه لكي تنالوا انتم الراحة لأنفسكم أجل . انه لخير لي ان اهلك من ان اشير عليكم بهذا . فليفعل ذلك من يشأ غيري . واستمعوا لأقواله اذا اردتم . اما اذا كنتم تحسون مثل ما احس وترون كما ارى انه كلما امتدت فتوحات فيلبس كان في ذلك تقوية لعدونا وشداً لازره علينا حين نضطر عاجلا او آجلا الى مكافحته فلم تترددون واي اضطرار تنتظرون ؟ فهل هناك ما يخشاه الاحرار قدر ما يخشون سقوط الشرف ؟ فهل انتم في انتظار هذا ؟ الا انه قد وقع بنا الآن ما تنتظرونه وان عبئه ليكدنا ويهظنا . لقد قلت « الآن » ولكن الحقيقة انه قد وقع منذ زمان ولازمنا وجباً لوجه . الا ان هناك اضطراراً آخر قد احتفظ به لنا للمستقبل : هو اضطرار الرق والجلد والصفع . فهل

تنتظرون هـذه الاشياء . الا لا قدرت الالهة . ان النطق بهذه الكلمات مهانة وذل

خطبة لشيشرون

كان شيشرون (١٠٦ ق . م - ٤٣ ق . م .) في رومية بمقام ديموستينيس في أثينا . وكان أديباً وخطيباً معاً ولكن تبريزه كان أظهر في الخطابة . وقد ولد في وقت بدأت فيه الجمهورية في التدهور وأخذ قواد الجيش في الاستئثار بالسلطة . وأوشكت حرية الامة الرومانية ان تزول وان تسود الامبراطورية . وقد حدث في حياة شيشرون ان حاكم صقلية المدعو فرّس قد طغى وتجبر على الاهالي فشكوه الى رومية فكان شيشرون « المتهم العام » او النائب العمومي في القضية . فهيأ أركان الاتهام والقى سبع خطب في صددها فكانت من الفصاحة والبلاغة بحيث فر فرس قبل الحكم

وكان موضوع خطبه قبيل وفاته تحذير الرومانيين من انطونيوس القائد المشهور . فتخلص منه هذا بأن أرسل اليه من اغتاله

وقد ألقى الخطبة التالية وهو يتهم فرس بأنه جلد احد الرومانيين الذين تكفي نسبتهم الى مدينة رومية في حقهم في ان لا يجلدوا . قال :

وحدث ان فرس جاء في ذلك اليوم الى مسانا فقدمت القضية له وقيل له ان الرجل روماني وأنه يشكو من انه قد حبس في محاجر سيراقوز وكيف انه عند ما كان يوشك أن ينزل الى السفينة اخذ يفوه بالفاظ الوعيد يهدد بها فرس فاعيد ثانيا واعتقل ريثما يقر قرار فرس على ما يريد ان يفعله معه

وعندئذ يشكر فرس هؤلاء الأشخاص الذين اعتقلوا هذا الروماني ويحمدهم على نشاطهم وحسن صنيعهم . ثم يأتي وهو ثائر بالشر والجنون «الى الفورم». عيناه تقدحان والقسوة تبدو من وجهه والناس صامتون ينتظرون ما يشير به . ماذا يريد ان يفعل ؟

انه يأمر في الحال بان يقبض على الرجل وأن يجرد من ملابسه ويقيد في وسط الفورم ثم تعد الاسواط . ويصيح الرجل في تعسه وشقاوته بانه روماني وانه ايضاً معدود من اهل كوزا الحاصلة على الحقوق البلدية وانه قد خدم في الجيوش الرومانية تحت قيادة الفارس الروماني العظيم لوقيوس برينيس الذي يسكن في مدينة بانورماس وكان فرس يستطيع أن يساله عن صحة هذه الدعوى

ان فرس يقول انه كان قد تحقق من أن المتهم قد ارسله العبيد الآبقون الى صقلية لكي يكون عيناً يتجسس لهم . وهذه تهمة لم نقم عليها بينة وليس لها أصل بل ليس هناك أقل شبهة في وجودها في رأس أي انسان . ثم يأمر فرس ان يجلد الرجل بالسياط على جميع جوانب جسمه

رجل روماني يجلد بالسياط ايها القضاة في وسط الفورم ! وطول مدة هذا الجلد لا يتأوه الرجل ولا يسمع منه في وسط آلامه وبين قرقعة الاسواط سوى هاتين الكلمتين : « انا روماني »

كان هذا الرجل يتخيل انه بهاتين الكلمتين يستطيع ان يدفع عن نفسه هذه السياط ويقي نفسه عذاب الجلد . ولكن هذه الكلمات لم تقلل من عنف السياط ولم يجده رجاؤه واثباته انه روماني شيئاً اذ رأى بعد الجلد انه قد احضرت له خشبة لكي يصلب عليها ولم يكن قد رأى قبلا أن الاستبداد والجبروت يصلان الى هذا الحد

فواهاً على اسم الحرية الحلو . ووا أسفاً على حقوق الحرية الرومانية . . . أيها القضاة . هذه سلطتكم التي أسفنا لضياعها قد ردها اليكم الرومانيون فانظروا كيف يعامل روماني في مدينة من

مدن حلفائنا المتحدين معنا . يقيد ويجلد بالسياط في وسط الفورم باعمر رجل لم يحصل على مركزه الا بفضل الرومانيين

خطبة للقديس برنار

كان القرن الثاني عشر قرن الحروب الدينية الصليبية فكان التعصب رأس الفضائل عند المسلم والنصراني وكان هو الزاد الذي تغتذي به القوة المعنوية لكل من الفريقين . وكان القديس برنار رأس احد الاديرة في فرنسا وقد عاش من ١٠٩١ الى ١١٥٣ م . وكان اذا خطب امتلك قلوب سامعيه لما كان في كلماته من الاغراء وقوة الاقناع حتى « كانت الامهات يخفين اولادهن والزوجات ازواجهن والناس اصدقاءهم » عندما كان ينزل ببلدة ليخطب فيها خوفاً عليهم من اغراء الخطيب لهم . وكان جل خطبه في الحض على مقاتلة المسلمين واجلائهم عن سوريا وفلسطين . ويحسن ان يقارن القارىء بين هذه الخطبة وبين خطبة ابن الزكي التي القاها عند فتح صلاح الدين لبيت المقدس . ففي كلتا الخطبتين روح دينية هوجاء كلها بغض وكلها تعصب كأن الحب والتسامح منكران لا ينبغي لاحد ان يدين بهما

قال القديس برنار يحض الاوربيين على حرب المسلمين :

لا مناص لكم من أن تعرفوا أننا نعيش في عصر العقاب والدمار فان عدو البشر قد نفخ على جميع انحاء العالم هبوات الفساد فاننا لا نرى سوى الشرور التي لا يعاقب عليها احد . ولم يعد لقوانين الناس أو قوانين الدين قوة تكفي لوقف انحطاط الآداب او منع الاشرار من التغلب . فلقد تبوأت الهرطقة كراسي الحق وأرسل الله لعنته على الاماكن المقدسة . وأنتم أيها المستمعون لكلماتي سارعوا الى تهدئة غضب الله . ولكن لا تسألوه أن يستجيب لكم عن ظلامات كاذبة ولا تلبسوا الخيش وانما تأبطوا تروسكم فان صليل السيوف وأخطار الحروب وكفاحها ومتاعبها هي الكفارات .

للتي يطلبها الله منكم . فكفروا عن خطاياكم بما تنالونه من الانتصارات على الاعداء واجعلوا خلاص الاماكن المقدسة مكافأة لكم على توبتكم

من منكم لا يمتشق حسامه اذا قيل لكم أن العدو قد غزا بلادكم وأوطانكم وأرضكم وأنه قد سبى زوجاتكم و بناتكم وتناول بالرجس معابدكم ، ان هذه الرزايا واكبر منها قد وقعت باخوانكم و باسرة يسوع المسيح التي هي اسرتكم . فلم تترددون في حسم هذه الشرور ولم لا تنتقمون لهذه الفظائع ؟ هل تتركون هؤلاء الاعداء هادئين ينظرون ويتأملون ما يرتكبونه من المآثم في المسيحيين ؟ اذكروا أن انتصارهم سيكون موضوع حزن جميع العصور وسيكون للاجيال الحاضرة فضيحة أبدية لا تمحى . اجل . ان الله الحي قد كلفني ان أعلن لكم انه سيعاقب اولئك الذين لم ينصروه على أعدائه . فالى الحرب . هلموا اليها . وليؤنس قلوبكم غضب مقدس واجعلوا العالم المسيحي باجمعه يتجاوب هذه الكلمات التي فاه بها النبي : « ملعون من لا يلطخ سيفه بالدم » واذا كان الله يدعوكم الى الدفاع عن ميراثه فليس ذلك لأن يده قد فقدت قوتها . اليس في مقدوره أن يرسل اثنى عشر جيشاً من الملائكة أو يفوه بكلمة فيذهب اعداؤه هباءً ؟ ولكن الله نظر في أبناء البشر وأراد ان يفتح لهم الطريق الى رحمته فقد أراكم تباشير صباح يوم الأمان بأن هيأ لكم الانتقام لمجده ولاسمه

ايها المجاهدون المسيحيون . ان الذي وهبكم حياته يطلب منكم حياتكم وهذه المعارك جديرة بكم لانكم تنالون المجد اذا انتصرتم والنفع اذا هلكتم . ايها الفرسان البواسل . يا حماة الصليب

الاجواد . اذكروا مثال آبائكم الذين فتحوا أورشليم والذين قد رقمت اسماؤهم في السماء فانبذوا ما يفنى واجمعوا ما لا يفنى وافتحوا ملكوتاً لا نهاية له

خطبة لبوسويه

كان بوسويه (١٦٢٧ ـ ١٧٠٤) من خطباء فرنسا المعدودين في عهد لويس الرابع عشر وكان قد نصب نفسه للدفاع عن الكاثوليكية فكانت أكثر خطبه مواعظ يلقيها من منابر الكنائس . وقد ارتد كثيرون من البروتستانت عن مذهبهم وعادوا الى الكنيسة الرومانية لقوة عارضته وفصاحة القائه . وله خطب عديدة مدونة . أفضلها ما ألقاه في رثاء امير كونده وكان قائداً فرنسياً شهيراً . والقطعة التالية مختارة من هذه الخطبة :

سار المرض في جسم امير كونده ولكن الموت كان قد أخفى اقترابه . فلما تحسنت حالته قليلاً وكان الدوق دانجيان الذي كان يوزع وقته بين واجباته نحو أبيه وواجباته نحو ملكه قد دعي الى البلاط ـ تغير عندئذ الامير لفراقه وهنا صرح له ايضاً بأن الموت قد اوشك ان ينزل به . الا انصتوا ايها المسيحيون وتعلموا كيف يجب ان تموتوا . او تعلموا بالحري ألا تنتظروا الساعة الاخيرة لكي تشرعوا في ان تعيشوا . أتنتظرون ان تبتدئوا الحياة عندما تقبض عليكم يد الموت الباردة في وقت لا تعرفون فيه اذا كنتم بين الاحياء او الاموات ؟ الا فاتقوا بالندم والتوبة هذه الساعة ـ ساعة القلق والظلام

لم يدهش الامير عندما ألقى في سمعه هذا الحكم بل صمت لحظة ثم قال : « هذه مشيئتك يا ربي . فلتكن مشيئتك . فامنن علي

بنعمتك لكي أموت موتة هنية »

فماذا ترغبون في أكثر من ذلك ؟ ففي هـذه الصلاة القصيرة ترون الخضوع لمشيئة الله والاعتماد على عنايته والثقة بنعمته . وكل هذا تقوى وايمان

ومن هذه اللحظة صار كما كان شأنه في معامع القتال هادئا ضابطاً لنفسه لا يشغله سوى الاهتمام بجنوده . كذلك كانت هذه حالته في هذا الصراع الاخير. فلم يتراء له الموت هيكلا مخوفاً شاحباً ذابلا أكثر مما كان يتراءى له وهو في المعارك ينتظر الظفر . فبينما كانت التنهدات والتأوهات تتصاعد حوله كان هو يدأب على اصدار أوامره كأنه لم يكن هو المقصود بهذه التنهدات والتأوهات. وكان يأمرهم بالكف عن البكاء لا لانه كان يحزنه هذا البكاء بل لانه كان يعوقه عن تأدية ما يرغب اداءه . وفي هذا الوقت امتدت عنايته الى أقل خدمه خطراً . فأثقل الجميع بهباته وشرفهم بتحف تذكارية وفعل ذلك بسخاء جدير بنبالته وبخدمتهم

وأسلم نفسه الى ذراعي الله وجعل ينتظر في هدوء خلاصه وكان يتهلل اليه الى ان أسلم أنفاسه الاخيرة . وهنا ينبغي ان ينفجر رثاؤنا ونستسلم للتفجع على فقد مثل هذا العظيم . ولكن اعزازاً للحق وخزياً لأولئك الذين يزدرونه يجب ان تصغوا الى هذه الشهادة التي ألقاها وهو يجود بنفسه . فقد قال له الكاهن الذي حضر للاعتراف انه اذا لم يكن قلبنا باجمعه مع الله يجب ان نسأل الله ان يجعله كما يشاء وان نقول له كما قال داوود هذه الكلمات المؤثرة : « اللهم اخلق لي قلباً طاهراً »

فلما سمع الامير هذه الكلمات صمت وتأمل كأن الكاهن قد

أوحى اليه خاطراً عظيماً . ثم دعا الكاهن الذي فاه بهذه الكلمات وقال له : « اني ما شككت قط في خفايا الدين كما ذكر بعضهم ذلك عني »

أيها المسيحيون انه قال الصدق حين فاه بهذه الكلمات لانه كان في حال لم يكن مدينا فيه للعالم بشيء سوى الحق . وقد قال أيضاً : « وأنا الآن أقل شكا مما كنت . فعسى هذه الحقائق تتكشف وتتوضح في ذهني . نعم سنرى الله وجهاً لوجه » ثم جعل يكرر هذه العبارة الاخيرة باللغة اللاتينية كأن معناها قد لذ له . ورآه المحدقون به وهو في هذه الحال الهنيئة فلم يضجروا من وقوفهم

فماذا كان حديث نفسه في هذا الوقت ؟ وأي نور جديد كان يلتمع فيها ؟ وما كان هذا الشعاع الفجائي الذي مزق سحب احساسه وشتت الظلام عنه بل بدد عنه هذه الظلال بل هذه الغوامض التي كانت تلبس الايمان ؟ وماذا جرى عندئذ لهذه الالقاب الفخمة التي نتباهى بها ؟

سرعان ما ننسى ونحن على حافة المجد وفي فجر هذا النور الجميل خيالات هذا العالم . وهذه الانتصارات اللامعة ما أكمدها في ذلك الوقت . وما أشد احتقارنا لامجاد هذا العالم وما أعظم اسفنا لان اعيننا قد عشيت بسنائها

فهلموا أيها الناس . بل هلموا أيها الامراء والاشراف . ويا من تحكمون على هذه الارض . ويا من تفتحون أبواب السماء للناس . وأخصكم انتم أيها الامراء والاميرات والنبلاء الذين هم من سلالة الملوك . انتم يا مصابيح فرنسا التي قد جللها السواد . أنتم الذين

قد غشاكم الحزن كما تغشى السحب الارض . تعالوا وانظروا ماذا بقي من هذا النبل العظيم ومن هذه العظمة العليا ومن هذا المجد الذي يعشي العيون

. . . تقدموا انتم يا من يتبعون طريق المجد ويسيرون اليه وقلوبهم ممتلئة حماسة ونفوسهم شجاعة وتعطشاً الى الحروب . هل رأيتم من كان أجدر منه بقيادتكم ؟ فاندبوا قائدكم وابكوه ولسان حالكم يقول : « لقد قادنا هذا الرجل واقتحم بنا المعارك . ونلنا في قيادته الرتب والدرجات واقتدينا به حتى وصلنا الى أشرف الغايات في الحروب ولا تزال لظله رهبة ينال بها الظفر . وها هو ذا الآن اسمه يحمس النفوس . ويحذرها أيضا . حتى اذا فاجأها الموت الذي به تستريح من متاعبها تكون قد اعدت نفسها لسكناها الابدي . فهي لذلك في طاعتها لملك الارض يجب أن تخدم ملك السماء »

خطبة لفنيلون

كان فنيلون (١٦٥١ ـ ١٧١٥) مطراناً في فرنسا وكان مؤدب ابن لويس الرابع عشر وقد ألف له كتاب تليماك . وكان هذا الكتاب سبباً في حرمانه من منصبه لان لويس اعتقد انه وضعه لكي ينتقد به بطريق التلويح الاحكام الاستبدادية التي كان يجري عليها هذا الملك

وكان خطيباً وواعظاً يجيد اذا تهيأ للخطبة ولا يأتي بالرذل اذا ارتجل . وفي الخطبة التالية يحاول فنيلون ان يثبت وجود الله :

لست افتح عيني دون أن أرى المهارة في كل شيء تكشفه لنا الطبيعة . فان لمحة واحدة تمكنني من ان أرى اليد التي صنعت كل هذه الاشياء . فان الذين قد تعودوا ان يفكروا في الحقائق

المجردة و يسيروا في تفكيرهم الى الاصول والمبادىء الاولى يرون الله في الطبيعة لانهم يرونه في عقولهم . ولكن كلما استقام هذا الطريق حاد عنه دهماء الناس وعامتهم الذين يتبعون اخيلتهم

فاثبات وجود الله أمر بسيط ولهذه البساطة لا تستطيع الاذهان التي لم تألف التفكير الذهني ان تقف على حقيقته . وكلما وضح النهج الذي يمكن به معرفة الكائن الاعلى قلت العقول التي تسير في وضحه . على ان هناك طريقة يمكن ان تكون اوفق الطرق لعامة الناس في اثبات وجود الله . فبها يمكن اولئك الذين لا يكثرون من الرياضة العقلية والذين هم اكثر الناس خضوعاً لحواسهم ان يعرفوا الله الذي تمثله أعماله في الطبيعة . فان الحكمة والقوة اللتين يظهرهما الله في كل شيء صنعه تدلان على اسمه كما تعكس المرآة ظل الاشخاص لأولئك الذين لم يجدوا في أذهانهم ما يثبت وجوده. وهذه فلسفة عامية تخاطب بها الحواس. لكل انسان بعيد عن الهوى أن يدركها و يفهم مغزاها

فاذا فرضنا ان هناك رجلا قد شغله شاغل عظيم فقد نرى انه يقضي أياما عديدة في غرفته مكباً على عمله دون ان ينظر الى ابعاد الغرفة او زخارفها او الصور المعلقة حواليه . وهذه الاشياء جميعها على الرغم من انها امام عينيه لا يراها ولا تترك أثراً في ذهنه . وانما الناس يعيشون على هذا المثال . فكل شيء أمامهم يدل على وجود الله ولكنهم لا يرونه . فهو في العالم وهو الذي صنعه ولكن العالم يجهله . فهم يقضون حياتهم دون أن يروه لأن الحياة قد فتنتهم وغشت على بصائرهم . وقد قال القديس اوغستين ان عجائب الكون تنقص قيمتها في نظرنا اذا تكررت امام اعيننا . وقال

شيشرون الروماني : « لما كنا مضطرين الى رؤية الاشياء نفسها كل يوم فان العقل والعين يعتادان رؤيتها . فلهذا لا نعجب ولا نحاول ان نكشف علل الحوادث التي نرى انها تحدث في طريقة واحدة لا تختلف . كأن جدة الشيء وما فيها من طلاوة هي التي تبعثنا على البحث ، أما عظمة الأشياء فلا تبعث فينا ذلك »

ولكن الطبيعة بأجمعها تثبت مهارة صانعها التي لا نهاية لها . وأقول ان الصدفة اي تتابع الحوادث تتابعاً لا ارادة فيه ليست هي أصل كل ما نرى. وحق علينا هنا ان نستشهد باحد أمثلة القدماء

من يستطيع ان يقول ان الياذة هوميروس لم يؤلفها شاعر فحل وانما هي حروف الهجاء وضعت معاً دون ان ترتب فحدث صدفة واتفاقاً انها رتبت كل منا في مكانه بحيث صار منها نظم مختلف القوافي ومعان تلون الاشياء باشرف الالوان وأجملها فنرى فيها الاشخاص كالطبيعة لكل منهم خلق وروح ؟ فمهما تعجل أي انسان فانه لن يستطيع ان يقنع احدا ذا حواس سليمة بان الالياذة ليس لها مؤلف وان الصدفة هي التي اوجدتها . فكيف يعتقد اذن انسان ذو عقل ان الكون وهو من حيث العمل أعجب من الالياذة ليس له صانع وانه وجد بالصدفة والاتفاق

خطبة لكرومويل

كان كرومويل (١٥٩٩ ـ ١٦٨٦) زعيم الثورة الانجليزية على الملك تشارلس الاول ملك انجلترا . وكان هذا الملك قد نزع الى الاستبداد والغى البرلمان وأقفل أبوابه وطرد النواب . فألف كرومويل جيشاً وطارده حتى هزمه وأسره . وتألفت محكمة لمحاكمته فأدانته وحكمت عليه بالاعدام . وأعدم

فعلا وصار اسمه عبرة لكل خائن من الملوك يستهين بدستور بلاده

وصار كروميل حاكم البلاد ودعي باسم « المولى الحامي » . قال كارليل عن خطبه « انها تفوق ما يعتقده الانسان في مخالفتها للخطب وفي عدم جريها على أساليب الخطابة أو في ترتيب الافكار ترتيباً منطقياً . . . ولكن مضى زمن كان لهذه الخطب في انجلترا شأن لا يقل عن شأن خطب ديموستينيس المصقولة في أثينا »

وقد ألقى الخطبة التالية رداً على ما اقترحه عليه البعض من أن يلقب نفسه بلقب الملوكية . قال :

« سأقول الآن شيئاً عن نفسي . واني أجهر بضميري وهو اني لست ممن يحفل بالالفاظ او الاسماء او ما الى ذلك . وليس أمامي نهج واضح ولكن عندي كلمة الله التي آمل أن تكون معي على الدوام والتي هي قوام ضميري ومعول علمي ونبراس طريقي . واذا كان حقاً ان الناس قد تقتادهم العناية الالهية الى الطرق المظلمة فليس لأحد أن يعترض عليهم . إذ مَن من الناس يرضى أن يسير في الظلام ؟ ولكن لله تدابير فاذا شاء انسان أن يعزو الى العناية الالهية جنونه وعمى قلبه فعليه خطيئته . . . والحق أن عناية الله قد نبذت لقب الملوكية ولم يكن هذا عن نزق أو عن هوى طارئ من الامة . كلا . انما هو عن روية وتدبر لا يطلب من أمة كائنة من كانت اكثر منهما . انه نتيجة حرب أهلية دامت عشر او اثنتي عشرة سنة سفك فيها كثير من الدماء . ولست أماري الآن في عدالة هذه الحرب ولست أحتاج الى أن أخبركم عن رأيي في ما لو عادت الحال التي دعت اليها . ولكن اذا كان هذا مما يمارى فيه فما يقوله الانسان عند ما يجد ان الله في صرامة حكمه قد استاصل عائلة باكملها وأقصاهم عن البلاد لأسباب يعلمها هو جلت قدرته بل انه

ختم الحرب بأن استأصل أيضاً الاسم واللقب

اني أنا لم أفعل هذا ولم يفعله اولئك الذين طلبوا إلي أن أتقلد مقاليد الحكومة التي أرأسها الآن . فان البرلمان هو الذي فعل ذلك . وكانت لله بصيرة في قمع العائلة ومحو اللقب . وكما قلت لكم لقد محا البرلمان هذا اللقب ونبذه و بقي منبوذاً الى يومنا هذا ...

واني ارجو اليكم الا تظنوا اني أقول هذا برهاناً على شيء ما . كلا . ان الله أراد ان يجزي الشخص والعائلة فعمل بل محا اللقب أيضاً . والآن ماذا يقول انسان يرى حكم الله هذا و يتأمل فيه ويرى هذا اللقب مغفرا في التراب ؟ اقول اني الآن في مثل هذا المقام . ان في هذا لعبرة ينفعل منها رجل ضعيف مثلي وقد تترك اثراً كبيراً في من هم أضعف مني . ولهذا فاني لا أبتغي أن أقيم ما هدمه الله ودفنه في التراب . كلا اني لن أبني أريحا مرة أخرى .

وليس عندي أزيد مما قلته . وقد أشرت اليكم في أول مقالي الى هذه النهاية التي انتهيت اليكم بها عند ما أوضحت لكم الطريق الذي سأسلكه في هذه الخطبة . ويمكنني أن أقول انه ليس من مصلحتي ولا من مصلحة الخدمة التي أحمل اعباءها أن أدلي بجميع الحجج على عدم منفعة مقترحكم أو فائدته للقيام بتادية أعمالنا . أقول انه ليس من المناسب ان اجهر بجميع الافكار التي تختلجني عن نقطة الامن في هذا الموضوع ولكني ادعو الله أن يوفقكم الى ما فيه انفاذ ارادته . وهذا في الختام هو ما يمكنني أن أقوله عن نفسي

خطبة لمارات

زعماء الثورة الفرنسية أشبه شيء بقصابين منهم بادباء أو سياسيين . فديدنهم وهجيراهم القتل وسفك الدماء . وكان مارات (١٧٤٣ ـ ١٧٩٣) اكثر هؤلاء الزعماء حضاً للناس على التقتيل واعدام النفوس . وكان له شريكان في ارتكاب هذه المآثم باسم القانون وهما دانتون وروبسبيير . ولما ضج الناس من كثرة الدماء التي كان يلغ فيها مارات كثرت الشكوك حوله وقصدت اليه فتاة تدعى شرلوط كوردي فقتلته وهو يستنقع في الحمام

والخطبة التالية القاها دفاعاً عن نفسه وكان قد اتهم بجملة تهم وكان يخشى أن يحكم عليه بالاعدام . قال :

لقد كنت أخاف وأرتعد من حركات الشعب الحماسية والخالية من النظام عند ما رأيتها قد تعدت حدود الضرورة . ولكي لا تموت هذه الحركات موتا أبديا ثم لكي نتجنب ضرورة عودتها اقترحت ان يدير الشعب في هذه الحركات رجل عاقل عادل مشهور بتعلقه للحرية ويجعل الحرية العمومية غايتها العظمى . ولو ان الناس استطاعوا أن يقدروا الحكمة في هذا المقترح ولو انهم اصطنعوه برمته لاكتسحوا يوم فتح سجن الباستيل خمسمائة راس من المتآمرين . ولو انا فعلنا هذا لاستقرت الامور . ولهذا السبب عينه اقترحت جملة مرار ان نعين شخصاً ونمنحه السلطة المطلقة . والدليل على اني اردت أن أقيده للمصلحة العامة هو اني اقترحت في أن يكون في طرف قدمه خرطوشة ولا يكون له من عمل سوى اطاحة رؤوس الخونة

لقد كان هذا رأيي وقد أوضحته لأخصائي ونشرته في جميع

كتابي وقد مهرت هذه الاقوال بتوقيعي ولست أستحي من ذلك واذا كنتم انتم لا تفهمون فتعساً لكم

اننا نعيش في عصر ولما تنته فيه أيام القلق والاضطراب . وها نحن أولاء بازاء مائة الف وطني ذبحوا لانكم لم تستمعوا الى صوتي . وثم مائة الف أخرى سيقاسون الآلام ويوشك أن يحل بهم الدمار . واذكروا انه اذا تردد الشعب فلن يكون ثم طريق آخر للنهوض

لقد نشرت هذه الآراء بين الجمهور فاذا كانت مخطرة فليفندها المستنيرون بما لديهم من الادلة . أما عن شخصي فاني اصرح باني اكون أول من يسير على رأيهم وأقدم لهم بذلك البرهان القوي على اني أرغب في السلام والنظام وسيادة القوانين عند ما أقتنع بعدالتهم

هل تتهمونني بالطمع ؟ اني لا انزل للدفاع عن نفسي . افحصوا سلوكي واحكموا على ماضيّ . فاني لو أردت أن أصمت وأتاجر بهذا الصمت لصرت من ذوي الحظوة في البلاط . ثم ماذا كان حظي ؟ لقد دفنت نفسي في المطبقات وتعرضت لجميع الاخطار وقد علق فوق رأسي سيف مائة الف سفاك ووعظت الناس بالحق ورأسي على النطع . فليتحد أولئك الذين يخشون المستبدين معي ومع جميع الوطنيين الصادقين وعلينا ان نحث الجمعية الوطنية على التعجيل في اقرار القوانين التي تضمن للناس السعادة وبعد ذلك اذهب فرحا الى المشنقة

خطبة للامارتين

كان لامارتين (١٧٩٠ ـ ١٨٦٩) شاعراً وأديبا وسياسياً فرنسيا . وكان خطيب الجمهورية ينافح عنها ولما حدثت ثورة سنة ١٨٤٨ كان هو من العوامل التي أفادت في منع الغلو فسار بالناس في طريق وسط وكبح جماح المتطرفين والملوكيين . وفي الخطبة التالية يفسر معنى الثورة الفرنسية وما جناه الناس منها . قال :

فما هي اذن الثورة الفرنسية ؟ هل هي كما يقول عباد الازمنة الماضية فتنة أمة مضطربة لغير سبب تهدم في تشنجاتها الجنونية كنيستها وحكومتها الملوكية وطبقاتها الاجتماعية وقوميتها حتى لقد مزقت أيضاً خريطة اوربا ؟ كلا . لم تكن الثورة الفرنسية فتنة منكودة كما يزعمون لان هبوب الفتن الى خمود عاجل وهي لا تترك وراءها سوى الجثث والدمار . وليس من ينكر ان الثورة قد خلفت وراءها دماراً وآلات للاعدام . وهذه لها بمثابة وخز الضمير للانسان ولكنها قد خلفت أيضاً مذهباً وخلفت روحاً ستبقى وتعيش ما دام في الانسان ذهن يفكر

ولسنا نقول هذا تشيعاً لشيعة ولسنا نقصد الى تأليف شيعة . انما نكوّن رأياً وفي الرأي القوة والشرف والمناعة . فهل نحن لاجئون الى العنف والضغط والقتل في بدء جهادنا ؟ كلا . وعلينا ان نشكر آباءنا لذلك لانهم قد خلفوا لنا الحرية التي لا تفتقر الى سلاح لان سلاحها سلاح السلم تنشأ وترقى دون حاجة الى الغضب او الشطط . ولهذا سنحوز النصر . ثقوا بذلك . واذا سألتموني عن القوة الادبية التي سترغم الحكومة على النزول على

ارادة الامة لأجبتكم انها سيادة الافكار وملوكية الذهن وجمهورية الذكاء . أو اقول بكلمة واحدة انها الرأي — هذه القوة الحديثة التي لم يكن القدماء يعرفون اسمها

أيها السادة . لقد ولد الرأي العام يوم اخترع غوتنبرج الذي لقب بصانع العالم الجديد بواسطة الطباعة تلك الصلة التي لا نهاية لها بين الافكار والعقول الانسانية . وقوة الرأي هذه التي لا نكاد نفهمها ليست تحتاج في بسط سلطانها الى سمة الانتقام أو سيف العدل او الى آلة الاعدام . لان في يدها ميزان الافكار والمؤسسات والذهن البشري . ففي احدى كفتي ميزانها ستعيش مدة طويلة خرافات العقل البشري والاهواء التي تدعى لها الفوائد وحقوق الملوك المقدسة والتمايز في الحقوق بين الطبقات وعداء الدول وروح الفتح الحربي واتحاد الدين والحكومة اتحاداً فاسداً والرقابة على الافكار واسكات زعماء الشعب وتفشي الجهل بين سواد الامة والعمل في الحط من كرامتهم . اما في الكفة الاخرى فاننا سنضع أخف ما خلقه الله وأقله مادة نعني النور — ذلك النور الذي تفجر من الثورة الفرنسية عند ختام القرن الماضي ولا شك انه تفجر من بركان هو بركان الحق

خطبة لفكتور هيجو

كان فكتور هيجو (١٨٠٢ — ١٨٨٥) من اكبر القوى الادبية في فرنسا زاول الشعر فبذ الشعراء ومارس الخطابة فكان الثاني في حلبتها عند من يعدون ميرابو أولها في فرنسا . ونزع الى الشهرة والصيت بين العامة فمارس

السياسة وهجر الادب فنال مبتغاه وفقد الادب العالي رجلا من أهل الكفايات فيه ظهرت بوادر أدبه في قصة « التعساء »

وقد ألقى الخطبة التالية في سنة ١٧٧٨ بعد مرور ماية سنة على وفاة الكاتب الشهير فولتير . قال :

منذ ماية سنة مات رجل . ومات خالداً مثقلا بالسنين وبالاعمال وبامجد التبعات واكبرها ألا وهي تبعة تنوير ضمير الانسان وتصحيحه . ومات تشيعه لعنات الماضي وبركات المستقبل وكلاهما من مفاخر المجد . مات بين هتاف اهل جيله وخلفهم وبين نعيب الماضي الذي لا يلين على اولئك الذين يجاهدونه . لقد كان اكبر من رجل . أجل انه كان عصراً . لقد أتم عمله وأدى الرسالة التي اختارته لها الارادة العليا التي تظهر في نظام القدر كما تظهر في نواميس الطبيعة . فان الاربعة والثمانين العام التي قضاها في هذا العالم كانت جسراً بين صعود الملوكية وبزوغ فجر الثورة فقد ولد في عصر لويس الرابع عشر ومات في حكم لويس السادس عشر . فسطع على مهده ضوء العرش العظيم كما انتشرت على كفنه الاشعة الاولى من الهوة السحيقة

فقد كانت ايام البلاط أعياداً وكانت فرساي زاهية وباريس في جهل وكان القضاة للتوحش الديني يحكمون بقتل الرجل المسن على الدواليب وبنزع لسان الطفل لأنه انشد احدى الاناشيد . ورأى فولتير هذه الهيئة النكدة النزقة وادرك جميع القوى التي عبئت عليه من البلاط والاشراف والممولين وهذا السواد الاعمى من الشعب وهذه المحاكم التي تذل الرعية وتستذل للراعي فتسحق وتتملق وتجثو امام الملك على رقاب الناس ثم هؤلاء التساوسة وهم

اخلاط مناكيد لا يعرفون سوى النفاق والتعصب فاعلن عليهم الحرب وشن غارته على هذا التآلف المكون من المظالم الاجتماعية وعلى هذا العالم القوي العظيم

فماذا كان سلاحه ؟ كان ذلك السلاح الذي هو اخف من الريح ولكن له قوة الصواعق اعني به القلم . فجاهد فولتير بهذا السلاح وظفر به . فلتحيي هذه الذكرى . لقد انتصر وهو فرد يحارب جموعا متألبة . وكانت حربه حرباً بين العقل والمادة بل بين الرأي والهوى أثيرت دفاعا عن المحقين على المبطلين وعن المستضعفين على الظلمة الجائرين وكانت حرب الدفاع عن الخير والرحمة . وكانت في قلبه رقة النساء وغضب الأبطال . وكان هو عقلا كبيراً وقلبا عظيما . هزم القوانين القديمة ودمغ العقائد العتيقة

انه انتصر على اشراف الاقطاعات وعلى قضاة القوط وقساوسة الرومان ورفع العامة الرعاع الى مقام الشعب . وكان يعلم وكان ينشر السلم وكان ينشر المدنية . وكان لا يعبأ بالتهديد أو السباب او الاضطهاد أو مقالة السوء أو النفي . وكانت ابتسامته تدمغ العنف وكان يهزم الاستبداد بتهكمه و يعبث بالمغرورين و يثبت امام المكابرين و يتغلب على الجهالة بالحق

خطبة لكوشوث

في سنة ١٨٤٨ شملت اوربا اوكادت تشملها ثورة تختلف نزعة ومبادىء باختلاف المكان . فكانت في هنغاريا تنزع نحو استقلال البلاد . فاخذ المجريون في الاتحاد وكافحوا الاستبداد مكافحة الابطال واوشكوا أن يتغلبوا على النمسويين . فما هو أن احست روسيا بنهوضهم وقرب انفكاكهم من قيد العبودية حتى ختمت على بنائها أن يتهدم في أثر هذه الحركة التي تصير عندئذ

مثالا وقدوة للشعوب المغلوبة على أمرها في دولة القياصرة . فارسلت جموعها الى النمسا وشدت ازرها فاخمدت ثورة المجر . وعادت هنغاريا في قيد الاستعباد ولكن لم تمض عشرون سنة حتى نالت استقلالها وصارت شريكة في مملكة « النمسا والمجر »

وكان زعيم الثورة في سنة ١٨٤٨ رجل يدعى كوشوث وقف حياته على استقلال بلاده وأرصد جهوده لتخليصها من نير النمسويين . فلما تألب الاستبداد وعتد الروسيون والنمسويون الخناصر على خنق حرية المجر وغمروهم بجيوشهما فر الى تركيا . فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار فقبض عليه الاتراك وسجنوه بدسائس السياسة النمسوية . وقضى سنوات يكابد عذاب السجن في الاناضول حتى تحرك الراي العام في انكلترا والولايات المتحدة وطلب الافراج عنه فسعى سفيرا هاتين الدولتين حتى اطلق سراحه فقضى سائر ما بقي له من العمر فيهما . وكان يخطب ويدعو الى نصرة بلاده . وقد القى الخطبة التالية في برلمان الولايات المتحدة في واشنطون اذ دعاه الاعضاء الى وليمة في سنة ١٨٥٢ تكريماً له واعزازاً للمبدأ الذي قضى حياته في الدفاع عنه . قال :

أقف الآن امامكم كما وقف قيثياس الاغريقي امام مجلس الشيوخ في رومية — ذلك المجلس الذي كان بكلمة واحدة حافلة بجلالة القوة يتحكم في أحوال العالم ويقف عتاة الملوك عن السير في طريق اطماعهم — اقف الآن امامكم وقلبي مفعم بالاعجاب والاحترام لكم انتم المتشرعون في هذا البرلمان الذين تمثلون جلالة الأمة المتحدة. ان جدران مجلس الشيوخ الروماني لا تزال اطلالها قائمة ولكن روحها قد هجرها اليكم بعد أن تنسم نسيم الحرية . وتلك الاطلال التي لا تزال شاخصة تغشيها الكآبة هي رمز الى فناء الجهود الانسانية وزوالها بينما هذا المكان هو رمز للحقوق الأبدية . كان ذلك المجلس كاسياً بلون الفتوح والحروب احمر قانياً وهو الآن في

ليل حالك من ظلام الظالمين بينما مجلسكم يسطع بضوء الحرية اللامع . كان ذلك يحتجن العالم الى مجده بينما مجلسكم هذا يحمي امتكم ولا يرضى بان يستحوذ على شيء من حقوق الأمة . كان لذلك روعة القوة التي لا تقاوم بينما أنتم تفخرون بتقييد هذه القوة . وكانت الأمم ترتعد وترتجف اذا رأت ذلك المجلس بينما الانسانية تعقد الرجاء بكم عند ما تنظر الى مجلسكم . وكان لا يدخل ذلك المجلس من الغرباء الا مهزوم او منكوب قد شدت ايديه بالأغلال لكي يركع عند اقدام الظافرين وأما أنتم فيدخل الغريب المبتئس اليكم فتدعونه الى أن يقعد بجانبكم حيث لا يدعى الملوك والقياصرة وليس لهذا الغريب من ميزة سوى انه زعيم مضطهد لأمة مقهورة لا حول له ولا قوة . كان شعار ذلك المجلس القديم : « ويل للمغلوبين » بينما شعاركم حماية المظلوم ولعنة الغاصب وعزاء المهزوم في قضية الحق . وبينما كان ذاك يقعد فيه رجال يفخرون بسيادتهم على العالم يقعد هنا رجال ينحصر مجدهم في الاعتراف بنواميس الطبيعة وبأله الطبيعة وفي انفاذ ارادة الامة التي هم خدامها

وان في تكريمكم اياي لتاريخاً للاجيال المقبلة . اجل . ان الاجيال المقبلة ستقرأ تاريخ ذلك الرجل الذي كان أول حاكم لبلاد المجر المستقلة فاخرجته القوة الروسية الغاشمة طريداً من بلاده فعاش في المنفى في بلاد الاتراك يحميه سلطان مسلم من استكلاب الجائرين المسيحيين ثم طوحت به دسائس السياسة الى سجون آسيا ثم مدت اليه اميركا يده فخلصته حتى اذا عبر المحيط الاطلانطيقي وهو يحمل آمال الامم المظلومة ويقف امام أهل هذه الجمهورية الكبرى فيذكر امامهم ظلامات بلاده وارتباطها بمصير

القارة الاوربية و يصرح بجرأة من يدافع عن حق بوجوب رفع مبادىء الدين المسيحي الى أن تكون قوانين دولية ، لم يران جرأته قد قوبلت بالصفح فحسب بل يجد ايضاً عزاء في عطف الملايين وتشجيع الافراد والمدن والاجتماعات والولايات تسنده معونتهم العاملة وتحييه حكومتهم و برلمانهم وتقعده مقعد الضيف المكرم وتسبغ عليه من المكارم ما لا يطمع فيه امير قوي . ثم هذه الوليمة وهذا الشراب الذي تساقاه — اجل ان لفي هذا تاريخاً للاجيال المقبلة

واني أؤكد دون تردد انه لا يوجد في بلادكم العظيمة هذه رجل واحد قد خطر براسه أن يضع مقعد اطماعه على اطلال حرية بلاده . وهو لو اتيح له تحقيق ذلك لما رغب فيه . لأن للمؤسسات التي تنشا بين ظهراني امة آثاراً تنعكس على اخلاق افرادها . ومن زرع الريح حصد الزوابع . فالتاريخ يكشف عن مقاصد العناية الالهية . فالله القادر يدير العالم المادي والعالم الادبي بنواميس أبدية . وكل ناموس مبدأ وكل مبدأ ناموس . والافراد كالامم لهم حق اختيار المبادىء بما لهم من الارادة الحرة . ولكنهم اذا ما اختاروا لم يعد لهم مفر من نتيجة اختيارهم . فالحرية من لوازم الحكومة الذاتية . والعدالة والوطنية من لوازم الحرية . ومن مبدأ «المركزية» في الحكم يتولد الطمع . والاستبداد من لوازم الطمع . وان بلادكم لسعيدة لأنها قد اغرمت بالحكومة الذاتية غراماً شديداً . وعلى هذا الاساس بنى آباؤكم بيتاً للحرية هو أمجد ما رأى العالم . ورقيتم انتم بهذا البناء حتى صار اعجوبة العالم . ان بلادكم لسعيدة اذ

اصطفاها الله لكي يثبت امكان اتحاد الولايات المستقلة كل منها محتفظ بحقوقه واستقلال حكومته ومع ذلك فهي كلها متحدة في دولة واحدة لكل نجم منها نوره الخاص يتلألأ ومن الجميع تتألف مجموعة تضيء سماء البشر

خطبة لغامبتا

كان غامبتا (١٨٣٨ — ١٨٨٢) أحد مؤسسي الجمهورية الفرنسية الحديثة. وعندما حاصر الالمان باريس في سنة ١٨٧١ فر من هذه العاصمة في بلون على أجنحة الريح حتى اذا صار بنجوة من جيوشهم نزل فأهاب بالأمة الفرنسية فالتفت حوله فجعلت الجيوش تعي تلو الجيوش فلا تصيب من الاعداء سوى الهزيمة فتخلى عنه انصاره فاستقال هو من الزعامة ورحل الى اسبانيا. ونازل الجنرال مكماهون فحكم عليه بالحبس والغرامة ولكنه عاد ففاز عليه واستقال الجنرال. وكان رئيساً للوزارة الفرنسية ثم استقال في سنة ١٨٨٢. وفي سنة ١٩٢٠ عندما احتفل بمرور خمسين سنة على الجمهورية أخذ قلبه فدفن في البانثيون مثوى أجساد عظماء الفرنسيين. وقد القى الخطبة التالية انهاضاً لهمم الفرنسيين بعد الانكسار العظيم الذي نالهم على يد الالمان. قال:

ان طبقة الفلاحين تتأخر جملة قرون عن طبقة المستنيرين والمتعلمين في هذه البلاد. اجل. ان المسافة بعيدة بيننا وبينهم نحن الذين قد حظينا بتعلم العلوم والآداب وإن كان هذا التعلم لا يزال ناقصاً. فلقد تعلمنا قراءة تاريخ بلادنا وأن نتكلم لغتنا بينما — وهذا من الفظائع — لا يزال كثير من مواطنينا لا يستطيعون الأداء — ويح هذا الفلاح قد قيدته أرضه بقيد الاسار يحمل عبئها حمل المقتدر الجسور وليس له من عزاء سوى أن يترك لأبنائه أرضه آملا أن يزيدوها فداناً أو بعض فدان. فجميع عواطفه ومخاوفه

ومباهجه معقودة بمصير أرضه . وأما عن العالم الخارجي وعن الاجتماع البشري الذي يعيش بين ظهرانيه فلا يدري سوى الاساطير والاشاعات . وهو مع ذلك فريسة الخداع والغش . فهو يطعن على غير دراية منه قلب الثورة التي أغدقت عليه النعم . ويدفع ضرائبه و يسخو بدمه لهذا الاجتماع الذي يخشاه بمقدار ما يحترمه . ولكن الى هنا تنتهي مهمته فاذا تكلمت معه عن المبادىء تبينت أنه يجهل كل شيء

فالى الفلاحين اذن يجب أن نوجه عنايتنا فهم الذين يجب علينا ان نرفعهم ونعلمهم . ولا ينبغي أن تنبز الأحزاب بعضها بعضاً بلفظة «الفلاحين» او «مجلس الفلاحين» ولا ينبغي ان يكون في هذه الألفاظ ما يسوء أحداً . فيا ليت كان لنا مجلس فلاحين في المعنى الحقيقي لهذه الكلمة . لان مثل هذا المجلس لم يكن ليؤلف من جهلة بل من المزارعين الأحرار المستنيرين الذين يستطيعون النيابة عن طبقتهم . و بدلا من ان تكون هذه الكلمة داعية إلى الهزء والسخرية تكون داعية الى تقدم سواد الأمة وتحضرهم . فمثل هذه القوة الاجتماعية الجديدة يمكن الانتفاع بها في المصلحة العامة إلا أننا لسوء الحظ لم نصل بعد الى هذه الدرجة وسنظل محرومين من هذا التقدم ما دامت الديمقراطية الفرنسية لا تعرف اننا بتعمير الأرياف ورد عظمة الفلاحين وقوتهم وعبقريتهم اليهم وفي تربية هؤلاء العمال وتحريرهم انما نعمل لمصلحة الطبقات العليا ونمس مادة بكراً حاوية لكنوز لا تفنى من النشاط والكفاية . فعلينا أن نتعلم ثم نعلم الفلاح ما عليه من الواجبات للأمة وما له من الحقوق عليها

وفي ذلك اليوم الذي ندرك فيه أنه ليس علينا من الواجبات ما هو أعظم من هذا وانه يجب علينا ان نرجىء جميع الاصلاحات وان نعرف أنه ليس يلزمنا سوى واجب واحد هو تعليم الأمة ونشر التربية وتشجيع العلوم — في هذا اليوم نكون قد خطونا خطوة واسعة نحو احياء الأمة. ولكن هذا العمل يجب أن يكون ممزوجاً يؤثر في العقل كما يفعل في الجسم. وبعبارة أدق أقول أنه يجب على كل إنسان أن يكون ذكياً مدرباً على التفكير والقراءة ومع ذلك ذا جسم قادر على العمل والقتال. فالى جانب كل معلم يجب أن يقف الجندي ومدرس الرياضة وذلك حتى يكون أولادنا وجنودنا وسائر مواطنينا قادرين على أن يحملوا السيف والبندقية وأن يسيروا على أقدامهم المسافات البعيدة وأن يناموا تحت قبة السماء وأن يتحملوا ببسالة جميع المشقات التي تعرض للوطنيين. فعلينا ان نرقي هاتين التربيتين، وتذكروا أنكم ان لم تفعلوا ذلك فنجاحكم في الآداب لن يجعل منكم سوراً وطنياً يحمي البلاد من الأعداء

واذكروا أيها السادة انه اذا كان الالمان قد تفوقوا علينا وإذا كنتم قد اضطررتم إلى مكابدة الآلام في رؤية بلادكم — بلاد كلير وهوش — تفقد أعظم ولاياتها التي يتجسم فيها الروح الحربي والتجاري والصناعي والديمقراطي فليس ذلك الا لنقص في آداب الأمة وصحة اجسامها. والآن تقضي مصالح بلادنا بأن نلزم الصمت فلا ننطق بكلمة هوجاء وان نكظم غيظنا في صدورنا وان نقوم بذلك الواجب العظيم ألا وهو احياء الامة فنرصد له ما يلزمه من الوقت حتى يصير عملا ثابتاً يدوم مع الأيام. فاذا كان

هذا العمل يقتضي عشرة أعوام أو عشرين عاما لانجازه فيجب ألا نضن عليه بهذا الوقت . ولكن علينا أن نشرع من الآن حتى نرى في كل عام تقدم الجيل الجديد في القوة والذكاء وحب العلوم وحب الوطن بحيث تحمل قلوب الشباب عاطفة مزدوجة ألا وهي أنه لا يخدم البلاد تمام الخدمة وينصح لها الولاء الا من يخدمها بعقله وذراعه

لقد تعلمنا نحن تعليماً غير مهذب فعلينا ان نعالج أنفسنا من ذلك الغرور الذي جلب علينا البلايا العديدة . وعلينا أن نتحقق المسئولية فاذا عرفنا العلاج بذلنا كل شيء للوصول الى الغاية وهي احياء فرنسا . ففي سبيل هذه الغاية يجب ان لا نبخل بشيء مهما عظمت قيمته وأن لا نسأل عن شيء آخر قبل تحقيقها . فأولى حاجاتنا في هذا السبيل هي التربية ـ تربية كاملة من القاعدة الى القمة بمقدار ما يستطيعه الذكاء الانساني . ومن الطبيعي أن نعترف بحقوق الجدارة فيجب ايقاظ الكفايات وتزكيتها . ويجب اصطفاء القضاة الاشراف النزيهين وأن تكون أحكامهم عمومية تثبت للجمهور انه ليس ثم من مفتاح يفتح ابواب الحق سوى الجدارة . وعليكم أن تنبذوا أولئك الذين يضعون الاقوال مكان الاعمال واولئك الذين يضعون المحاباة مكان الجدارة وأولئك الذين يحملون السيف لا لحماية فرنسا وانما ابتغاء خدمة احد الاشخاص يطوح بهم في سبيل اهوائه ويشركهم في جرائمه ـ هؤلاء هم دعاة السوء وفاعلو الشر الذين يجب عليكم ان تنبذوهم

خطبة للنكولن

كان ابراهام لنكولن (١٨٠٩ — ١٨٦٥) زعيما لحزب تحرير العبيد في الولايات المتحدة الاميركية ثم رئيساً لهذه الجمهورية الكبرى . وربما لم تقع في العالم حرب اشرف من هذه الحرب . فقد انشطرت الامة شطرين : احدهما المؤلف من أهل الشمال يقودهم لنكولن يرغب في محو العبودية ورفع الزنوج الى مرتبة الاحرار . ولم تكن لهم مصلحة مالية في ذلك ولم يكن لهم مأرب خاص وانما غايتهم تحرير الانسان . وكان الشطر الثاني مؤلفاً من اهل الجنوب وكانوا يستوردون العبيد من افريقيا ويستغلونهم في مزارعهم فيسخرونهم لاعمالهم يشتغلون نهارهم بلا اجر لا يأخذون من اسيادهم سوى كفافهم من الطعام . واشتعلت الحرب وانهزم اهل الجنوب وفتح بذلك للانسان فتح جديد في المبادىء الادبية العليا . وقد القى لنكولن الكلمات الاتية في خطبة افتتاح عهد الرياسة الثانية . قال :

ابناء وطني : في وقوفي الآن امامكم للمرة الثانية لكي اقسم يمين عهد الرياسة لا تتيح لي الفرصة ان أسهب في الكلام بمقدار ما فعلت في المرة الاولى . فقد كان من المناسب في ذلك الوقت أن القي امامكم بياناً مفصلا بعض التفصيل عن الخطة التي أزمعنا اتباعها . أما الآن فبعد انصرام أربع سنوات تليت فيها تصريحات عمومية عن أماكن النزاع ووجوهه ـ هذا النزاع الذي لا يزال يستغرق جهود الامة وهمها ـ فليس لدي من القول مما جد سوى القليل . فان تقدم جيوشنا الذي يتوقف عليه كل شيء آخر معلوم لديكم كما هو معلوم لدي . واني أعتقد انه تقدم يجب أن نقنع به ونتشجع منه . ولست أجرؤ على التنبؤ ولكن رجائي في المستقبل عظيم . وقد كانت افكارنا في مثل هذا الموقف منذ اربع سنوات

تتجه نحو حرب اهلية وشيكة الوقوع . وكنا كلنا نخشى هـذه الحرب . وكنا كلنا نبحث عن السبيل الى تجنبها . و بينما كانت الخطبة الافتتاحية تلقى من هـذا المكان وكانت كلها تدعو الى الاتحاد وتجنب الحرب كانت العوامل الثائرة تعمل في المدينة لتمزيق هذا الاتحاد بدون الحرب وقسمة الغنائم بالمفاوضات . وكان كلا الحزبين يكره الحرب ولكن كان أحدهما يؤثر الحرب على تمزيق وحدة الأمة . فكانت الحرب

كان العبيد السود يؤلفون الثمن من سكان هذه البلاد ولم يكونوا متوزعين بالتساوي في أنحائها وانما كانوا يسكنون الجنوب . ومن هؤلاء العبيد كانت تنتفع أناس منفعة خاصة عظيمة . وكلنا كنا نعرف ان هذه المنفعة ستثير الحرب . وكان الثائرون الداعون الى تمزيق وحدة الامة يقصدون الى تقوية هذه المنفعة وتخليدها ومد شبكتها ولم يكن قصد الحكومة الا تحديد هـذه المنفعة وقصرها على مكانها دون أن تتسع دائرتها الى ولايات أخرى . ولم يكن احد الحزبين يتوقع أن تبلغ الحرب هذا المدى أو تطول الى هذه المدة كما لم يكن احدهما يتوقع حسم النزاع والاتفاق قبلما تعرف نتيجة الحرب . فكان كلاهما ينتظر انتصاراً سهلا أهون في النتائج وأقل في الروعة . فكلاهما يقرأ انجيلا واحداً و يصلي لاله واحد . وكلاهما يدعو الله أن يعينه على خصمه . وربما يتراءى لكم من الغريب أن يدعو انسان ربه لكي يؤيده في انتزاع الخبز من عرق جبين الاخرين ولكن لنترك الحكم على الناس حتى لا يحكم علينا . ولم يستجب الله لدعوات أحد الحزبين استجابة تامة لأن للخالق مقاصد لا ندركها

واذا نحن اعتقدنا ان هذا الرق الافريقي هو احد تلك الذنوب التي قدر الله حدوثها في وقت ما وان هذا الوقت قد انقضى بحكم الله وان عنايته الالهية قد قضت بان يزيل هـذا الذنب وانه قد اوجد هذه الحرب الهائلة لهذا القصد فهل نجد في هـذا مخالفة للصفات الالهية التي يؤمن المؤمنون بوجودها في الله ؟

وانا لنرجو الرجاء كله ونصلي الصلوات الحارة لكي تنتهي هذه الحرب العتيدة وتزول بليتها عنا . ولكن اذا كانت ارادة الله قد قضت بأن تستمر هـذه الحرب حتى تأكل الاموال التي تكدست من كد العبيد كداً غير مكافأ مدة مائتي وخمسين عاما وحتى يأخذ السيف من دم سادة العبيد مقدار ما اخذه هؤلاء بالسوط من دم عبيدهم كما قيل منذ ثلاثة الاف عام فيجب ان نقول ان ارادة الله هي الارادة الصادقة وهي الارادة الحقة

فلنجاهد في انهاء هذا العمل الذي نحن فيه وصدورنا خلو من النيات السيئة نحو الناس وقلوبنا تفيض بالتسامح نحو الجميع ثابتين في الحق كما يرشدنا اليه الله حتى نضمد جراح الأمة وعلينا ان نعنى بذلك الذي اصطلى بنار الحرب ونعنى بمن تركه من الايامى واليتيمين . وان نعمل كل ما يهيء لنا صلحاً دائماً بيننا وبين جميع العالم

خطبة لكافور

كان كافور (١٨١٠-١٨٦١) من عظماء ساسة القرن التاسع عشر فقد أسس دولة ايطاليا الحديثة وتوج عليها الملك فكتور عمانوئيل فكان لمملكة ايطاليا بمقام ابى مسلم الخراساني للدولة العباسية . ولكنه لم يجز على فضله جزاء سنمار كما كوفىء ابو مسلم . ومات بعيد اتمام عمله بشهور مذكوراً من

بني وطنه بالفضل والمجد . وهذه الخطبة التالية القاها يناشد فيها قومه بأن يجعلوا رومية عاصمة الدولة الجديدة . قال :

يجب ان تكون رومية عاصمة ايطاليا اذ ليس هناك حل للمسألة الرومانية ما لم توافق ايطاليا اوربا على هذا المبدأ واذا كان هناك من يتوهم ان ايطاليا المتحدة يمكن ان تعيش وتدوم دون ان تكون رومية عاصمتها فاني اصرح بأن المسالة الرومانية تبقى مع ذلك صعبة الحل ان لم يكن حلها عندئذ محالا . ولعلكم تسألونني عن السبب في تشبثنا بحقنا او بواجبنا في جعل رومية عاصمة ايطاليا المتحدة ؟ ذلك لأنه اذا لم تكن رومية عاصمة ايطاليا فوجود مملكة ايطاليا لن يتحقق . وهذه حقيقة يشعر بها الايطاليون شعوراً غريزيا ويؤكدها جميع الذين يزنون المسائل الايطالية من الاجانب بميزان الحق والنزاهة وهي حقيقة لا تحتاج الى ايضاح لأن الامة باجمعها تقول بها وتناصرها

ومع ذلك ، ايها السادة ، فهذه الحقيقة يدعمها برهان بسيط . وذلك ان ايطاليا لا تزال في حاجة الى عمل اشياء عديدة قبلما تستقيم على قاعدة ثابتة وامامها عديد من المسائل التي اوجدها اتحادها الجديد والتي تحتاج الى حل سريع وامامها من العراقيل التي اوجدتها التقاليد التليدة ما يحتاج الى التمهيد تحقيقاً لهذا المشروع العظيم . ومن الضروري لكي ينجح مشروعنا ان لا يكون هناك سبب للشقاق والقطيعة وما دامت مسألة العاصمة لا تزال باقية معلقة فان الخلاف والشقاق سيستمران بين الولايات الايطالية

ومن السهل ان نعرف السبب الذي من اجله يقترح البعض من ذوي الثقافة والنبوغ والنية الحسنة ان تكون العاصمة مدينة

اخرى غير رومية مستندين في ذلك الى اعتبارات فنية او تاريخية او غير ذلك . والكلام في هذا الشأن ممكن الآن ولكن لو كانت رومية هي العاصمة لما استطاع أحد ان يناقش في الموضوع . وحتى أولئك الذين يعارضون في اتخاذ رومية عاصمة الآن لن يعارضوا اذا راوا ان الفكرة قد تحققت . فالوسيلة لحسم النزاع والشقاق بيننا لا يكون الا باعلان رومية عاصمة لايطاليا

ومما يسوءني ان ارى ناساً من الممتازين بالرفعة والنبوغ ومن ذوي المآثر في الاتحاد الايطالي يجرون هذه المسألة الى مناقشاتهم فيحاج بعضهم بعضاً بحجج الاطفال

ان مسألة العاصمة ايها السادة ليست من المسائل التي ينظر فيها الى الاعتبارات المناخية أو الجغرافية أو الحربية . ولو كان لهذه الاشياء شان لما كانت لندن عاصمة انجلترا ولما كانت باريس عاصمة فرنسا . كلا . انما تنتخب العاصمة لاعتبارات ادبية ومشيئة الامة هي التي يجب أن تكون الفاصلة في موضوع كهذا يلصق بها أشد الالتصاق

ففي روميه وحدها قد اجتمعت جميع الظروف التاريخية والذهنية والادبية التي تحتم جعلها عاصمة دولة كبيرة . فرومية هي المدينة الوحيدة التي لها من مأثورها التليد ما يخرجها عن ان تكون بلدة ذات اهمية محلية . فان تاريخها من عهد القياصرة الى اليوم هو تاريخ مدينة قد رفعتها اهميتها الى ان تعدو حدودها والى ان تكون احدى عواصم العالم . فاقتناعاً بهذه الحقيقة اراني مضطراً الى أن اصرح لكم وللامة والى ان اناشد وطنية كل ايطالي كما اناشد جميع نواب البلاد بوجوب وقف هذا النزاع حتى يتاح

لممثلي امتنا في البلاد الاجنبية ان يعلنوا ان الامة تقرنا على جعل رومية عاصمة الدولة . وأظن ان أولئك الذين يخالفونني لأسباب أعرف قيمتها وحرمتها يرون انني على حق في هذه المسألة . واذكروا اني أنا لي مدينة اخرى (تورين) لا أستطيع أن لا ابالي بمشيئتها وانه لمن بواعث حزني العميق أن انبيء أهـل بلدتي بأن ينكروا على انفسهم هذا الامل في جعل بلدتهم مركزاً للحكومة

اجل ايها السادة . اني باعتبار شخصي لست اسر بالذهاب الى رومية . فاني غير حاصل الا على القليل من الذوق الفني . فلذلك عند ما اجدني بين اطلال رومية الفخيمة قديمها وحديثها ارثي لبلدتي الساذجة الخالية من الخيال والفنون . ولكنني اثق بشيء واحد ألا وهو ان اهل بلدتي بما عرفت من خلقهم و بما عرفت من استعدادهم للبذل والتضحية في سبيل انجاح قضية البلاد المقدسة ورغبتهم في التضحية لهذه القضية حتى وقت أن كانت بلدتهم تغزوها الاعداء ـ اقول اني لست اخشى ان لاينصروني وانا نائبهم وأن لا يبذلوا مصالحهم في سبيل ايطاليا المتحدة

وان الامل بأن عاصمة ايطاليا ستكون « المدينة الابدية » يملأني عزاء بان هذه المدينة لن تنسى فضل تلك البلدة التي كانت مهد الحرية والتي غرست فيها غراسها فاثمرت وانتشرت فروعها من جزيرة صقلية الى جبال الالب

لقد قلت وأعيد قولي بأن رومية ورومية فقط يجب ان تكون عاصمة ايطاليا

خطبة لمازيني

كانت ايطاليا قبل أن تتحد وتصير مملكة واحدة يحكمها برلمان على رأسه الملك فكتور عمانوئيل جزءاً من الامبراطورية النمسوية وغنماً مقسما بين أمرائها يسام أهلها الخسف ويجرعون كؤوس الذل حتى قيضت لها الاقدار ثلاثة من رجالها هم كافور وغاريبالدي ومازيني فنهضوا بالامة ونشروا لواء الاتحاد فانضوى اليه جميع ابنائها وقامت الحرب بين الغاصبين الاقوياء وبين الوطنيين الضعفاء . فوجد الوطنيون من حقهم قوة تغلبت به على باطل الغاصبين فانهزموا وتركوا الحق لذويه والوطن لاهله . وكان مازيني (١٨٠٨ — ١٨٧٢) اخطب الثلاثة . وكان دفاعه عن قضية الوطن بالقلم اكثر مما كان بالسيف . وهذه الخطبة التالية القاها مازيني في ميلان سنة ١٨٤٨ تأبيناً لشهداء كرسنتسا الذين قتلهم الاعداء ويحاول فيها الخطيب اثارة الوطنية في نفوس ابناء بلاده . قال :

عند ما ندبني شبابكم لكي افوه ببضع كلمات تقديساً لذكر باندیره واخوانه الذين قضوا شهداء في كوسنتسا خامرني الظن بأن بعض الذين سيسمعونني سيهيبون بي وقد اخذهم الغضب قائلين ، « دعنا من رثاء الموتى فأن التكريم الذي يليق بشهداء الحرية هو ان نظفر في المعركة التي شرعوا في القتال فيها . فان كوسنتسا التي ماتوا فيها لا تزال مستعبدة والبندقية التي ولدوا فيها لا تزال محوطة بالاعداء . فلنشرع في تحريرهما ولا ندع يمر بأفواهنا قبل تخليصهما سوى كلمات الحرب »

ولكن خطر ببالي شيء آخر . فأني تساءلت : لماذا لم نظفر للآن؟ ثم لماذا بينما نحن نقاتل للاستقلال في الشمال تموت الحرية في الجنوب؟ ثم لماذا بدلا من أن نقاتل في حرب كان يجب ان نثب وثبة الاسد نحو جبال الالب نرانا الان وقد مضى علينا اربعة اشهر ونحن ندب

دبيب العقرب المترددة قد حيطت بحلقة من النار؟ وكيف تنقلب نهضة امة قد شملها احساس قوي سريع الى جهد المريض الجازع يتقلب في يأسه من جنب الى جنب ؟

اجل . لو اننا كنا ارتفعنا الى قداسة الفكر الذي مات من اجله هؤلاء الشهداء . ولو كان لواء ايمانهم المقدس يتقدم شبابنا نحو المعركة . ولو كنا نحس ذلك الاتحاد الذي كان قويا في قلوبهم . ولو كان هذا الاتحاد يجعل من كل فكر من افكارنا عملا ويخلق من كل عمل من اعمالنا فكراً . ولو كنا ادخرنا كلماتهم الاخيرة في قلوبنا وتعلمنا منهم ان الاستقلال والحرية وحدة لا تنفصل وان الله والامة أو الوطن والانسانية كلمتان لازمتان لكل اناس يسعون في أن يكونوا أمة متحدة . ولو كنا نعرف ان ايطاليا لن تعيش عيشاً حراً حتى تصير مملكة واحدة يزكيها حبها لابنائها والمساواة التي تشملهم ويعظمها احترامها للحق الابدي وتستغرق مجهوداتها الاماني العليا فتصير بذلك اشبه بكنيسة ادبية بين امم اوربا. اجل . لو فعلنا ذلك لما كنا الآن في حرب بل لكان النصر يرفرف علينا . ولما كانت كوسنتسا تحتفل بشهدائها خفية وسراً ولما كانت منعت البندقية من اقامة اثر لذكراهم . ولكنا الآن نهتف لاسمائهم لا يخامرنا الشك في مستقبلنا ومصيرنا ولا تعمنا سحابات الكآبة . ولكنا الآن نقول لأرواحهم : « ابتهجوا فان ارواحكم قد تجسمت في اخوانكم . فهم جديرون بكم »

ان الفكرة التي عبدوها لم تشرق للآن على أعلامكم بطهارتها وكمالها . وهذا البرنامج السامي الذي خلفوه للجيل الايطالي الناشيء هو برنامجكم . ولكن المذاهب الكاذبة المنبوذة التي سكنت الى

قلو بكم قد شوهت هذا البرنامج بل فتتته ومزقته اربا . واني التفت ذات اليمين وذات الشمال فأرى جهود الجماعات وتفانيها وهي تتراوح بين الغضب تستخو فيه بنفوسها و بين الدعة تطمئن اليها فتنزل عن مقامها . وما هو أن نسمع صوت الحرية حتى تطن في آذاننا كلمات العبودية . ولكن اين هي نفس الامة ؟ واين هو الاتحاد في هذه الحركة المختلفة الاشكال والجهود ؟ بل اين هي الكلمة التي يجب أن تسود على جميع النصائح التي تسدى الى الجمهور لاستهوائه أو استغوائه ؟ فاني أسمع أقوالا وعبارات هي بمثابة الافتئات على سيادة الامة . فهناك من يقول : « ايطاليا الشمالية » او « عصبة الولايات » او « اتحاد الامراء » ولكن ايطاليا أين هي ؟ اين هي البلاد التي تجمعنا والتي حيا فيها شهيدنا بنديره ... ؟

اننا ونحن في نشوة الانتصارات الاولى قد نسينا المستقبل ونسينا معه تلك الفكرة التي ألهمها الله اولئك الذين تألموا . وقد عاقبنا الله على نسياننا بتأخير انتصارنا . واذكروا يا اخواني ان هذه الحركة الايطالية هي بحكم الله حركة اوربا بأجمعها فاننا نهضنا لكي نسدي الى العالم الاوربي ضمانا لتقدمه الادبي . ولكن لا يمكن احياء أمتنا ورميها بالاكاذيب السياسية أو أطماع الاسر المالكة أو نظريات الوصوليين . وذلك لأن الانسانية انما تحيا وتتحرك بالايمان وما المبادىء العليا الا نجوم هدى ترشد اوربا نحو المستقبل . فلنتوجه نحو اجداث اولئك الشهداء الذين ماتوا في سبيلنا ولنستلهمهم نجد في عبادة ايمانهم سر الظفر والانتصار

الا ان ملائكة الظفر وملائكة الاستشهاد اخوة وانما ينظر الاولون الى الارض ويتطلع الاخرون نحو السماء وعندما يحين

الحين وتتلاقى نظراتهما بين الارض والسماء يزدان هذا العالم بحياة جديدة اذ ينهض شعب من مهد القبور . . .

احبوا ايها الشبان المثل الاعلى . احبوه واكرموه . فان المثل الاعلى هو كلمة الله . ففوق جميع الاقطار بل فوق الانسانية يوجد الوطن الروحي . مدينة النفس : حيث يؤمن الجميع بحرمة الفكر وكرامة النفس الخالدة وهم بهذا الايمان اخوان . وسبيل هذا الاخاء هو الاستشهاد . ومن هذا المستوى الاعلى تصدر المبادىء التي يكون بها فداء الامم . فانهضوا لأجل هذا المثل الاعلى ولا تجعلوا سبب نهضتكم نقاد صبركم أو آلامكم او خوفكم من المكاره . واذكروا ان الغضب والكبرياء والطمع وشهوة الثراء عدة الغالب والمغلوب على السواء . وانتم لو هزمتم عدوكم بهذه العدة اليوم فانكم مهزومون بها في الغد وانما مزيتكم في المبادىء اذ ليس لعدوكم سلاح يقاومها . وعليكم ان تعودوا الى حماستكم الاولى والى احلام نفوسكم العذراء ورؤيا شبابكم الاول اذ فيها روائح الجنة التي تبقى في النفس من لدن نفخها الله فيها . واحترموا فوق كل شيء ضميركم ولا تنطقوا الا بالحق الذي زرعه الله في قلوبكم وارفعوا العلم الذي يعلن ايمانكم عند ما تشتغلون مع غيركم لتحرير ارض الوطن

ان ما اقوله لكم هو ما كان يقوله لكم شهداء كوسنتسا لو كانوا للآن احياء بينكم والآن اشعر كأن هاتفاً من ارواحهم قد استجاب الى حبنا فهي الآن تطيف بنا فادعوكم الى ضم هذه الارواح اليكم كنزاً تدخرونه في وسط هذه العواصف التى تهددكم والتي سنتغلب عليها بقوة اسمائهم التي تلفظ بها شفاهنا وايمانهم الذي يعمر قلوبنا

كان الله معكم ولتنزل بركاته على ايطاليا

خطبة لپت

كان وليم بت (١٧٥٩ — ١٨٠٦) خطيباً وابن خطيب نزع به العرق الدساس الى احتراف حرفة والده لورد تشاتام فصار زعيما سياسياً كبيراً وخطيباً مصقعاً . وكانت مهمته التي ارصد لها حياته ووقف عليها مجهوداته مكافحة نابليون . فقد الب على هذا الجبار الفرنسي دول اوربا وهيأ له الجيوش والاساطيل . ولا يعلم ماذا كان يكون مصير العالم لو لم يخمد بت شوكة نابليون في بدايتها

وقد القى هذه الخطبة عن « الخطر الفرنسي » بمناسبة الشطط الذي تناهت اليه الثورة الفرنسية وانتصارات نابليون الحربية . وكان البرلمان الانجليزي قد تهيأ لمنح روسيا اعانة لكي تخلص اوربا من فرنسا . قال امام اعضاء البرلمان الانجليزي :

ان لنا من عزة النفس والولاء السامي وسجاحة الخلق وشرف الروح ما يعمر قلوبنا ويملأ نفوسنا بهجة فنمتاز بذلك على سائر الأمم ونجد في هذه الصفات ضمانا يؤمن بلادنا ويجعلها في حرز من من غزو المعتدين . اما بخصوص هذا الشيء الذي يقلق بال بعض الاعضاء — وهو تخليص اوربا — فاني لن اسهب في ذكر تفاصيله . فلن اقول انه يجب تخليص اوربا مما تعانيه الآن او مما تنتظر وقوعه في المستقبل او من عدوى المبادىء الكاذبة او من هموم هذا الزمن القاتلة او من انحلال الحكومات وموت الاديان وتهدم النظم الاجتماعية وغير ذلك مما سيلازم انتصار الجمهورية الفرنسية — اذا كانت لسوء حظ البشر ستنتصر على الرغم مما يصرف من الجهود في مكافحتها . كلا لن اقول مم يجب تنجية اوربا وتخليصها لأنه من السهل ان يجمع الانسان جميع الاخطار التي تتعرض لها اوربا فيجد انها بأجمعها عائدة الى وجود الحكومة الفرنسية وقوتها .

واذا كان ثمت من يصرح بأن هـذه الحكومة ليست جائرة فهو مخطىء اشد الخطا وجاهل يجهل حقيقة هذه الحكومة . ان جورها هائل كريه تقبض على حياة الخاضعين لها وثروتهم فتتصرف بها وتبذلها ضحية لاطماعها وقسوتها وظلمها . ان هـذه الجمهورية الفرنسية قد حيطت بسياج من الجرائم وهي انما تحتفظ بوجودها الآن لأنه ينظر اليها بعين الخوف والرهبة فلا يقترب من حصونها الكافرة احد الا ويرتد فازعا

وعلى هذا المبدأ لا أظن أن العضو الموقر يخالفني في أن تأمين بلادنا هو غاية هذا الكفاح الشرعية . وفي هذا القدر مايكفي لجعل كلامي مفهوما . اما سؤال العضو الموقر : « هل تريد الحكومة متابعة الحرب حتى تنهزم الجمهورية الفرنسية ؟ وهل نيتها ألا تعامل فرنسا ما دامت جمهورية ؟ » فجوابي الصريح عليه اني اقول ان آرائي تعدو حدود البلاد الفرنسية . فاني افكر في سلوك فرنسا ومبادئها وخلقها . وانظر في هذه الاشياء فارى فيها خراب الامم التي حالفت هذه الحكومة . وعلى ذلك اقول انه ما دامت هـذه الكتلة الضخمة المؤلفة من الجنون لم تتغير تغيراً كاملا . وما دام خلق هـذه الحكومة باقياً كما هو . وما دمت لا استطيع ان اقول وانا مؤيد براي جميع الناس ان فرنسا لم تعد تزدري حقوق الامم الاخرى . وانهـا لا تدبر التدابير لبناء امبراطورية كبيرة . وانها قد اهتدت الى حكومة تحتفظ بهذه العلاقات التي بينها و بين الامم الاخرى والتي لا يمكن اقواماً متحضرين ان يعيشوا آمنين بدونها والتي هي ايضاً مصدر مجدهم وذكرهم — اقول اننا لا يمكننا ان

نتعامل مع فرنسا ما دامت هذه الشروط غير متوافرة فيها

والوقت الملائم للمناقشة في الصلح هو الوقت الذي يمكنكم فيه أن تثقوا بالوصول الى صلح شريف يعيد الى اوربا نظامها القديم متزناً وطيداً ويعيد الى كل دولة تدخل في المفاوضات تلك المكانة التي تضمن استقلالها كما تضمن الامن العام في اوربا

هذا هو اعتقادي الذي لا أخشى الجهر به اعرضه على اذهان الطبقات المفكرة في العالم البشري . فاذا لم تكن قد سممتهم السفسطة الفرنسية وأزاغت ابصارهم فاني واثق من انهم سيزكونني في اصراري على خطتي . واني ارجو رجاء حاراً ان تنظر الدول المشتبكة في هذا الكفاح الى هذا الموضوع كما نظرت اليه . وارجو على الخصوص ان يكون هذا هو نظر امبراطور روسيا وهو ما لا اشك فيه . وعلى ذلك اطلب من هذا المجلس ان يوافق على المشروع الذي عرضته حكومة جلالة الملك بخصوص اعانة روسيا

خطبة لولبرفورس

كان ولبرفورس (١٧٥٩ — ١٨٣٣) أحد أعضاء البرلمان الانجليزي وقد أرصد حياته لغرض واحد لم يعده الى غيره استغرق جهوده فعاش لهذا الغرض ومات بعد أن تحقق أكثره ولم يبق الا أقله . فقد قام في ذهنه منذ صباه أن الرق جور بالغ يجب قمعه ومحوه . وكان الزنوج في انجلترا الى عهده « عبيداً » يباعون ويشترون بيع السلع . فقضى ولبرفورس عشرين سنة في اقناع الامة والبرلمان بضرر النخاسة حتى اقتنع كلاهما بصحة مذهبه . فالغى البرلمان الرق في سنة ١٨٠٧ . ثم أخذ في اقناع الامة بضرر النخاسة في المستعمرات . وعرض مشروع الالغاء في البرلمان وقرىء القراءة الثانية ثم لم

تمض ثلاثة أيام حتى مات ولبرفورس . والقطعة التالية مختارة من احدى خطبه عن الغاء الرق . قال :

اني مقتنع بأنه مهما اختلفت آراؤنا فاننا اليوم متفقون مجمعون. فاني لا أستطيع ان أعتقد بأن مجلس العموم الانجليزي سيصدق على هذه التجارة الجهنمية أعني تجارة الرقيق في أفريقيا . لقد مضى علينا وقت جهلنا فيه طبيعة هذه التجارة ولكنها قد تكشفت لنا أساليبها الآن وظهرت عارية بجميع صنوف فظاعاتها . والحق أنه لم يظهر في العالم نظام شبيه بهذه التجارة من حيث أنها حافلة بالقسوة والشر . فهي تصل الى أبعد مدى في العدوان الملحّ والشر المصفى وهي تستهين بالمزاحمة وتجل عن المقارنة لانها فريدة في تفوقها الممقوت

ولكني يا سيدي الرئيس أراني مغتبطاً اذ تقدم الجمهور البريطاني في هذه الفرصة وأعلن عن شعوره بوجه صريح بعيد عن الابهام في هذا الشأن . ولست استطيع الأداء عما غامرني من السرور لفوز قضيتنا حتى صارت الأمة تنظر الى مسعانا نظر الموافقة والود بدلا من المقاومة وعدم الثقة السابقين . وقد كان من أثر هذا الشعور أن ارتفع المستوى الأدبي في البرلمان . اذ مهما ظن الناس او تحدثوا عن الخلافات الحزبية في البرلمان وتفشيها تفشياً مطلقاً فأن الأمة البريطانية بل سائر الأمم المحدقة بنا قد عرفت بان هناك من الموضوعات ما هو فوق الأحزاب . فهناك الرباوة العليا التي نرتفع اليها بعيدين عن هذه النزاعات والخلافات التي يثيرها سافي السهول . واذا كنا نعيش ونحيا في جو حافل بالأبخرة والسحب تلعب بنا الاف الرياح المتعاكسة والتيارات

المتضادة فاننا في هذه القضية نحيا الآن في طبقة عليا يكتنفها هواء صاف هادىء نقي قد خلص الينا من كل ما يثير القلاقل « كالصخرة العصماء ترتفع مشمخرة نحو السماء فلا يبلغ مجهود العاصفة أن ينال نصفها . تطيف بها حول صدرها سحب تمخر الأجواء ولكنها لن تبلغ الرأس حيث أشعة الشمس الأبدية قد استقرت واطمأنت »

فعلى هذه الرباوة العليا اذن يجب ان نبني « كعبة » الخير والبر وعلينا ان نوطد الأساس في الحق والعدالة وليكن منقوشاً على بابها « السلام والبر لجميع الناس » وهنا يجب ان نقدم باكورة نجاحنا وان نرصد حياتنا لخدمة هؤلاء التعساء تضطرم في احشائنا حماسة سخية تقتضي منا اصلاح ما جلبناه من الأذى على هؤلاء المساكين . فلنأسون الجراح التي فتحناها . ولنبتهج بأننا الوسيلة السعيدة لوقف السلب والخراب وبأننا قد ادخلنا الى تلك البلاد المترامية الأطراف بركات المسيحية ورفاهيات المتحضرين وحلاوة الحياة الاجتماعية . واعتقادي انه ليس بين من يسمعني من لا يرحب بقدوم هذا العصر السعيد ومن لا يشعر براحة العقل وسلوى النفس عند ما يفكر ويتامل في هذه الخواطر الجميلة

خطبة لانجرسول

يعد انجرسول (١٨٣٣ — ١٨٩٩) من الطبقة الاولى بين مفكري الاميريكيين وخطبائهم وكان من خصوم المسيحية ولكنه كان على الرغم من ذلك محبوباً من الجماهير يتوافدون لسماع خطبه فيأخذ في اقناعهم (أو اغوائهم ؟) حتى يستهويهم بالفاظ وعبارات « لها انغام الموسيقى وايقاع الاشعار حتى ليكاد ناثره يقرأ شعراً لما في تأليف جمله من الايقاع ». وهو مع كفره بالاديان ليس في اللغة الانجليزية من الخطب ما هو أحفل بالروح الدينية من خطبة القاها

عند وفاة أخيه تنبض بالعطف والمحبة وتثبت أن المجرسول كان يؤمن بالحياة الاخرى . قال :

اخواني . اني سأفعل الآن ما وعدني به كثيراً هذا الفقيد ان يفعله لي . هذا الفقيد الذي كان أخاً وزوجاً واباً فمات في ضحوة الرجولة ولما يبلغ ظهيرتها والظل لما يزل يميل الى الغرب

انه لم يجز في طريق الحياة تلك الأعلام التي تدل على انه قد بلغ اقصاها ولكنه شعر بالاعياء فانتحى جانباً من الطريق والقى عبئه على الأرض متوسداً اياه فأخذه نوم لا تكدره احلام واطبق جفنيه . فمات وذهب الى عالم صامت عالم التراب وهو بعد متعلق بالحياة يطرب للعالم

ولعله من المفضل الأحسن ان تصطدم السفينة بالصخرة المختفية فتغوص في لحظة الى القرار تحت الأمواج المصطخبة والسفينة بعد في اسعد ساعات سفرتها تقبل الرياح اشرعتها وتسكب الشمس اشعتها عليها لأن مصير السفينة الى التحطم سواء أكان ذلك في ارض الساحل ام في وسط البحر . وكل حياة بغض النظر عما اذا كانت حافلة بالحب مزدانة بالسرور ستنتهي في الختام الى مأساة بها من الحزن والظلام ما هو حري بأن ينسج من لحمة الموت وسداه

لقد كان هذا الرجل الشجاع الرحيم صخرة وسنديانا اذا عصفت عواصف الحياة ولكنه كان زهراً وكرما اذا انجابت السحب وصحت السماء . وكان صديقا للنفوس الجريئة يرتفع الى القمم وينبذ تحت قدميه الخرافات بينما كان يتفجر من جبهته فجر ذهبي لعصر رائع

كان يعشق الجمال وكانت تنهمل دموعه اذا ما مس نفسه جمال اللون أو جمال الشكل أو روعة الموسيقى وكان ينصر الضعيف والمسكين والمظلوم و يبسط يده براً بالفقراء . وقد ادى ما عهد اليه من الخدمات العمومية بقلب ولي و يد طاهرة

وكان من عباد الحرية واصدقاء المظلومين . وكم من مرة سمعته وهو ينشد هذه الانشودة : « لاجل العدالة اقيموا كلكم معبداً » وكان يؤمن بأن السعادة هي خير ما في العالم وأن العقل هو الشعلة الوحيدة وان العدالة هي احق ما يعبد وان الانسانية اليق الاديان والمحبة افضل الكهان . فكان وجوده مما يزيد افراح اصدقائه ولو ان جميع الذين افادوا منه مصلحة حضروا اليوم الى قبره واهدى كل منهم اليه زهرة لنام هذه الليلة تحت عرم من الازهار

ان الحياة وادٍ ضيق بين جبلين قاحلين من الابدية ، ونحن انما نحاول عبثاً ان يخترق بصرنا هذين الجبلين ، ونصيح صيحات عالية فلا يجيبنا غير صدى اصواتنا ، ومن شفاه الموتى الخرساء لا تخرج لنا كلمة ، ولكن في ليل الموت هذا يرى الامل نجماً ويسمع الحب المنصت حفيف الاجنحة .

وهذا الذي ينام الآن امامكم نوم الموت شعر وهو في النزع باقتراب الموت فخاله عودة الصحة فهمس كلمته الاخيرة : « حالي احسن الآن » فلنؤمن على الرغم من الشكوك والتحكمات والمخاوف والدموع ان هذه الكلمات العزيزة تصدق على جميع الموتى

واليكم انتم المصطفون من الاصدقاء الكثيرين الذين كان يحبهم وقد جئتم الان لكي تؤدوا هذه المهمة الاخيرة للفقيد نقدم رماده

خطبة لماكولي

كان ماكولي (١٨٠٠ ـ ١٨٥٩) من ادباء انجلترا المعدودين « ما مس شيئاً الا زانه . فليس هناك ما يضارع ماكتبه ماكولي من المقالات الساحرة المتوهجة . وليس هناك من التواريخ مثلما الفه ماكولي من حيث القدرة على فتنة القارىء . وقد قيل عن اسلوبه انه يتسم بالقوة والنشاط والجزالة والوضوح وفوق ذلك تلك السمة التي قل وجودها الان وهي صحة اللغة »

وقد القى الخطبة التالية في سنة ١٨٤٦ عن « المعارف السطحية » قال :

ان من الناس الذين احب أن أتكلم عنهم بالاحترام والوقار من تعتريه المخاوف التي لا اساس لها عما يسمونه « المعارف السطحية » فهم يقولون ان المعارف الجديرة بان تسمى بهذا الاسم هي من البركات الانسانية وهي حليفة الفضيلة و بشيرة الحرية ولكن مثل هذه المعارف يجب أن تكون عميقة . فالجماعة التي قد شدت طرفا من الرياضيات وطرفا آخر من الهيئة وآخر من الكيمياء وقرأت شيئاً من الشعر وأصابت شيئاً آخر من التاريخ — مثل هذه الجماعة يقولون عنها أن وجودها مخطر بالمصلحة العامة . فالمعرفة السطحية في رأيهم شر من الجهل . وهم يستندون في زعمهم هذا الى قول بوب « اشرب حتى ترتوي والا فلا تذق » فالجرعة الصغيرة تسكر ولكن من عبّ افاق . . . واني اعترف بان هذه التخوفات لم تعتري يوماً ما وهذه الطمأنينة انما يبعثني عليها عدم استطاعتي التمييز بين المعرفة السطحية والمعرفة العميقة لانه ليس عندنا من المعايير ما نقيس به عمق المعارف . والقائلون بهذا التمييز يتوهمون وجود حد فاصل بين العميق والسطحي من المعارف

اشبه شيء بالحد الفاصل بين الحق والباطل . اما انا فلست اجد هذا الحد . هبنا تحدثنا عن رجال العلم العميق فهل نعني بذلك انهم قد بلغوا قرار العلم ؟ هل نعني انهم قد عرفوا كل ما يمكن معرفته ؟ بل هل نحن نعني انهم يعرفون الآن ما سيعرفه المبتدئون من الجيل القادم ؟ اننا اذا قارنا بين الحقائق القليلة التي نعرفها و بين ما نجهل من الحقائق التي لا تحصى لاعترفنا بأننا كلنا سطحيون ولكان فلاسفتنا أول من يقر بأنهم سطحيون . ولو فرضنا اننا سألنا عالماً مثل نيوطن عما اذا كان يعتد معارفه عميقة حتى في تلك العلوم التي لم يكن له فيها منافس لأخبرنا بان حاله كحالنا . فكلانا مبتدىء . وهذا الفرق الذي بيننا و بينه يزول عند ما نقارن بمقدار الحقائق التي لا تزال مجهولة . كما يزول الفرق بين الواقف في سفح الجبل والواقف على القمة اذا قورن بالمسافة التي تفصل الجبل عن النجوم الثابتة

فيظهر لكم من ذلك أن أولئك الذين يخشون المعارف السطحية لا يعنون بتلك المعارف ما يمكن ان يسمى سطحياً عند المقارنة بما لا يزال مجهولا . لأن جميع المعلومات الانسانية كانت ولا تزال وستكون سطحية اذا نحن قصدنا الى هذا المعنى . فما هو اذن المعيار الذي يصح ان نتخذه لقياس المعارف وهل يجب أن يكون واحداً في جميع البلدان وفي جميع الاوقات

لقد كان « راموهون روى » يعد بين الهنود من اعمق الناس معرفة بالثقافة الغربية على انه لو وجد في هذا العهد لعد من السطحيين الذين لا يؤبه لهم . وكان سترابو يعد بحق منذ ثمانية عشر قرنا من اعمق الجغرافيين في حين ان المعلم الذي يجهل اسم اميركا الان

يكون مضحكة بين البنات . وماذا نقول الان عن معارف عظماء الكيمائيين في سنة ١٧٤٦ أو عظماء الجيولوجيين في سنة ١٧٤٦ ؟

فالحقيقة الراهنة ان الانسان من حيث العلوم التدريبية في تقدم مطرد . ولكل جيل بالطبع صفوفه المتقدمة وصفوفه المتأخرة ولكن الصفوف المتاخرة في الجيل الجديد تأخذ مكان الصفوف المتقدمة في الجيل السابق

انكم تذكرون قصه جوليفر . فقد تحطمت به سفينته في بلاد يسكنها اقزام صغار فكان بينهم عملاقاً يخطو على اسوار عاصمتهم واذا انتصب فاق طول قامته منائر معابدهم . فكان يجر اسطولا ملوكياً وكان عند ساقه فيمر تحتها جيش الملك يحمل الرايات و يدق الطبول . فاذا افطر التهم احد اهرائهم واذا تعشى اكل قطيعاً من مواشيهم فاذا عطش عمد الى دنان النبيذ فشربها جملة . ثم يسيح سياحته الثانية فيجد نفسه بين اناس يبلغ احدهم في القامة ستين قدماً فبينما كان يحتاج وهو في بلاد الاقزام الى ان يحمل الناس على يديه و يضعهم عند اذنه لكي يسمع ما يقولونه له اذا به تفعل به العمالقة ما كان يفعله مع اولئك الاقزام . يتفرج السيدات عشاهدته وهو يقاتل الجرذان والضفادع والزنابير . ثم يأتي قرد فيختطفه و يتسلق به احدى المداخن فاذا بلغ الفمة ارداه فيقع في صحفة من القشده يسبح فيها ويخرج ناجياً بنفسه

لقد كان هذا الرجل في بلدته الأصلية مثل سائر الناس ذا قامة اعتيادية فلما صار في بلاد الأقزام صار عملاقا وعاد قزما بين العماليق . وهكذا الحال في العلوم . فعمالقة احد العصور قد يكونون اقزام عصر آخر

خطبة للورد رسل

كان لورد جون رسل (١٧٩٢ — ١٨٧٨) أحد رؤساء الوزارة الانجليزية وكان من أكبر زعماء حزب الاحرار في القرن التاسع عشر تحت رايته نشأ غلاد ستون وعلى يديه اشتد ساعد الاحرار حتى صاروا قوة يحسب لها المحافظون حسابها . ومن مآثره اصلاح طرق الانتخاب للبرلمان وكانت الاصوات تباع في زمنه بالنقد جهراً وكانت دوائرها لا تتناسب عدداً ومن ينتخب منها . وهو أيضاً صاحب الفضل في الغاء المكوس الجمركية على الحبوب الواردة لانجلترا

وكان في الخطابة وسطاً لا يأتي بالدون ولا يرتفع الى الجيد الناصع ولكن خطبه كثيرة وأكثرها يتعلق بالشئون السياسية . وقد القى الخطبة التالية في معهد الميكانيكيين في ليدس وموضوعها « قيمة الصدق في الاداب » قال :

ان سعة هذا الموضوع تجعلني اشعر بضيق الوقت اذا حاولت ان ابحث بعض فروعه . ولكن لي كلمة اجدني جريئاً على ان اقولها لكم وهي جديرة بان يعتبرها كل من يتصدى لدرس الآداب . ففي الادب عدد لا يحصى من التآليف تختلف من حيث الذوق ومن حيث الصيغة . فمنها الرزين ومنها الزاهي . ومنها ما يتطوح مع الخيال ومنها ما لا يحيد عن المنطق . ولكنها جميعها تحتاج الى شرط واحد هو في اعتقادي شمول الصدق لها . لقد قال أحد المؤلفين الفرنسيين ان الجمال ليس سوى الحقيقة وان الحقيقة وحدها هي الجميلة وان الحقيقة يجب ان تنبسط على الاساطير الخيالية . وهذا قول حق . لأني أعتقد انه لا يمكننا أن نقيس الادب الخيالي وننقده تمام النقد الا اذا صدق تمثيله للطبيعة

ولعلي أحسن الافصاح عما اريد اذا ضربت لكم مثلا او

مثلين . فقد عاش في القرن الماضي شاعر قد ذاع صيته واشتهر بحق بجزالة الخيال وقوة الاحساس أعني به : ينج . فانه على الرغم من مواهبه لم يكن موفقاً في صدق الاداء . فقد قال في احدى قصائده : « ان النوم مثل هذه الدنيا سريع الى زيارة من يبسم لهم الحظ . بينما هو يهجر البائسين . ولا يقع الا على الجفون التي لم تكدرها الدموع »

فاذا انتم حققتم النظر في هذه الكلمات رأيتم ان الشاعر قد خلط شيئين معا . فقد خلط بين اولئك المجدودين الذين نالوا حظهم من هدوء البال وكمال العافية و بين اولئك المجدودين الذين حصلوا على الثراء . فانظروا الآن معي تجدوا ان اولئك الذين لم ينالوا حظهم من هذه الدنيا ورأوها قد تنكرت لهم والذين لم يبتسم لهم الحظ يهنأون بالنوم اللذيذ أكثر مما يهنأ به من يفوقونهم رتبة او ثروة

ولا شك في انكم تذكرون شاعراً آخر صادق التمثيل للطبيعة أعني به شكسبير . فهو يذكر في احدى قصائده بحاراً صغيراً قد اخذه النوم وهو في مكانه المزعزع على الصاري تحفه رياح العاصفة . بينما الملك لا يستطيع النوم في فراشه الوثير . فهذا هو الشاعر الذي لا يعدو حقائق الطبيعة

فاذا أنتم نظرتم في هذه الاعتبارات وقستم الشعر بهذا المقياس وعولتم عليه ايضاً في درس التاريخ وغيره حصلت لكم قوة التمييز وصرتم على بينة مما تقرأون فتعرفون عندئذ ما اذا كان جديراً بانتباهكم واعجابكم او انه كثير الاغلاط غير جدير بالالتفات

خطبة للورد بيكونسفيلد

كان بيكونسفيلد (١٨٠٥ ـ ١٨٨١) يهوديا « طالب دنيا » نشأ على دين موسى فرأى اهل ملته مكروهين محرومين من بعض الحقوق المدنية فتقمص بلباس المسيحية ودخل البرلمان . فكان قريع غلادستون . كلاهما على طرفي نقيض وكلاهما يرمي الى غاية تختلف عن غاية الاخر . كان غلادستون حراً يقول بالديمقراطية . مسيحياً يخلص الايمان للمسيحية . وكان رجل ايثار ونبل في العواطف اذا اهتاجته فاضت على لسانه وحياً يستطير لب الانجليز فيأتمرون بما أمر وينتهون بما نهى . وكان بيكونسفيلد على عكس ذلك . كان محافظاً يكره الديمقراطية ويخشاها . يهودي القلب في مسلاخ المسيحي . لم يكن للعواطف عنده شأن تدفعه اثرته الى تجشم المشاق لكي يرضي كبرياءه . فكان لذلك يتخذ هيئة خاصة في لباسه وفي مشيته يروض نفسه على الكتابة والخطابة حتى بلغ فيهما شأواً عظيما . ولم يكن المثل الاعلى في جميع أطوار حياته غايته لانه لم يكن له من غاية سوى مصلحته الذاتية . ولو لم يعش في القرن التاسع عشر لكان هذا القرن خيراً واحسن أثراً في السياسة للشرق والغرب مما كان . فهو الذي جاهد غلادستون في منح ارلندا استقلالها . والاستعماريون الانجليز يذكرون ويشكرون له صنيعه فى جعل ملكة انجلترا « امبراطورة » على الهند

قال في احدي خطبه عن « اخطار الديمقراطية » :

اعتقد انه من الميسور أن نزيد عدد الناخبين في البلاد اذا بنينا هذه الزيادة على مبادىء لا تتعارض ومبادىء الدستور فلا يكون الانتخاب من حقوق الافراد بل امتيازاً يمتاز به الفرد لما اكتسبه من فضائل او لما له من ذكاء أو اجتهاد او استقامة ويستعمله للمصلحة العامة . فاذا أنتم اطرحتم هذه القاعدة ورضيتم بالنظرية القائلة بأن لكل شخص الحق في الانتخاب ما دام لم تحكم عليه أحكام تحرمه هذا الحق فانكم بهذا العمل تهدمون أساس الدستور وتهدمونه بكيفية تسقط كرامة الامة

ان بين المشروع الذي عرضناه وبين ذاك الذي عرضه العضو المحترم فرق ما بين الحكومة الارستقراطية اي الحكومة المؤلفة من نخبة الامة وبين الحكومة الديمقراطية . واني أرتاب كثيرا في ما اذا كانت الديمقراطية توافق هذه البلاد . ومن حق هذا المجلس ان يعرف عند النظر في هذا المشروع ان ما يدعى اليه انما هو الاختيار بين المحافظة على الدستور الراهن أو قبول الديمقراطية

وعلى المجلس أن يتذكر أن ما يعرض عليه الآن له قيمته من الثمن. فان شعبنا له صفات خاصة . وليس في العالم الآن أمة تعيش في مثل الظروف التي نعيش فيها . مثال ذلك ان لنا كنيسة قوية قديمة ذات اوقاف ثمينة ومع ذلك نعيش في حرية دينية تامة . ولنا نظام لا يختل ترافقه حرية مستوفاة . وعندنا ضياع واسعة تشبه ضياع الرومانيين ومع ذلك لنا نظام تجاري يفوق ما كان للبندقية وقرطاجنة مجموعتين. ومع هذه المتناقضات وهذه الخواص التي تتسم بها بلادنا نعيش في كنف حكومة لا تعتمد على القوة . فليس لنا جيوش مرابطة . كلا انما نحن تحكمنا مجموعة من التقاليد القديمة التي احتفظ بها آباؤنا جيلا بعد جيل علماً منهم بأنها تخلد العادات وتقوم مقام القوانين وماذا فعلنا بهذه التقاليد ؟ أنشأنا بها أكبر امبراطورية في العصر الحاضر . وجمعنا من رؤوس الأموال مقادير تشبه ما يذكر في الأساطير . وأنشأنا نظاماً من الاعتماد في الصناعة والعمل ليس له شبيه في التاريخ من حيث السعة والتراكب . وهذه الأعمال العظيمة لا تتناسب وثروة البلاد وعناصرها الأصلية . فاذا أنتم هدمتم اساس هذه العظمة فاذكروا أن انجلترا لا يسعها ان تبدا من جديد

إن هناك بلاداً قد قاست آلاماً مبرحة وتعرضت لأخطار

هائلة . ها كم الولايات المتحدة التي نزلت بها من المحن في أيامنا هذه ما سمعتم عنه . فقد رأيتم هناك حرباً أهلية يتناحر فيها الاخوان عاشت مدى أربع سنوات . ولكن هذا الزمن على طوله وعلى ما كان فيه من عناء وخراب وكوارث لم يكن ليمنع الولايات المتحدة من البدء ثانياً لأنها في حال تشبه تلك الحال التي كان يعيش فيها أسلافنا في حرب الورود (سنة ١٤٥٥) عند ما كان السكان لا يزيدون على ثلاثة ملايين نفس والبلاد تحتوي على ما لا يحصى من الأرض البكر والكنوز المعدنية التي لم تستغل بل التي لم تكشف بعد . وها كم فرنسا . فقد قامت في تلك البلاد ثورة في ايامنا هذه غير ثورة أخرى حدثت في عصر آبائنا . وكانت كلتاهما انقلاباً حقيقياً غير قاصر على تغيير الأحوال السياسية والاجتماعية . فقد أقتلعت مؤسسات الأمة اقتلاعاً ومحيت فروق الهيئة الاجتماعية بل بلغ التغيير حد ابدال الاسماء والأعلام . ولكن مع كل ذلك استطاعت فرنسا ان تبدأ من جديد . وذلك لأن لها متسعاً من الأراضي الزراعية في اوربا وسكانها كانوا ولا يزالون محدودي العدد يعيشون عيشة غاية في السذاجة

ولكن انجلترا . هذه البلاد التي نعرفها ونعيش فيها ونزهى بها ليس في مقدورها ان تبدأ من جديد . ولست أعني بذلك انه اذا فشت في انجلترا القلاقل ذهبت حضارتها وأصبحت خراباً يبابا . كلا . فان ذكاء الامة يعود فيأخذ في الظهور و يبقى شيء من الاخلاق ولكن انجلترا هذه التي نعهدها بما فيها من مأثور الآباء و بأس الابناء وبما فيها من الاموال والنظم التجارية تزول . . . وأني ارجو ان

المجلس عند ما يدرك أن المشروع يراد به طعن دستور البلاد لن يأذن بالتقدم خطوة واحدة نحو الديمقراطية إذ عليه ان يحافظ على النظام الحاضر الذي نعيش فيه على أرض انجلترا

خطبة لغلادستون

تاريخ غلادستون (١٨٠٩ — ١٨٩٨) هو في الواقع تاريخ انجلترا في القرن التاسع عشر أو على الاقل تاريخها في ثلثيه الاخيرين . فليس هناك مسألة مهمة تتعلق بسياسة البلاد في هذه المدة لم يكن لرأيه أثر فيها . وكانت الميزة التي أتسمت بها شخصيته وجعلت الشعب الانجليزي ينقاد اليه اخلاصه . فلم يكن يعرف « دهاء » السياسيين أو أساليب المواربة وطرق الغش والتمويه وكان لسانه ترجمان قلبه . « ولم يكن له من يعدله في المناقشات البرلمانية في تاريخ البلاد وكان صوته بطبيعته جميلا حلواً قوياً نافذاً يرن على أوتار جميع المواطف وقد كان مرانه الطويل في مجلس العموم سبباً في تنشئة مواهبه الى أقصى حد . وكانت طلاقة لسانه تبلغ به حداً فاحشاً بحيث تحمله فصاحته أحياناً الى غاية بعيدة ولكن المستمعين له لم يكن يظهر عليهم مع ذلك انهم يسأمون الاصغاء اليه »

وقد اخترنا القطعة التالية من خطبة القاها في جلاسجو في سنة ١٨٦٥ عن « الحروب والاستعمار » قال :

اذا رجعنا الى تاريخ الانسان في العصور الاولى نجد انه كان يعيش بلا قوانين تحدد حقوق الافراد فكان اول ما يجول بخاطر الفرد اذا أراد أن يصلح من شئونه ويزيد ثروته ان يغير على جاره ويأخذ منه عنوة ما يملك . فكانت القرصنة والغزو في العصور الاولى يقومان مقام الحروب في العصور الحديثة . تسألون لماذا ؟ فلننظر في عبر الحرب

في الحرب فريقان لا يمكن أن يكون كلاهما على صواب بل يمكن أن يكون كلاهما مخطىء . واني اعتقد انه اذا نظر مؤرخ نزيه

في عدد عظيم من الحروب التي نشرت الخراب في العالم ـ بصرف النظر عن ذلك البعض الذي لا يشك فيه والذي سلت فيه السيوف في شأن الحق والعدل ـ فأنه يجد ان كثيراً منها قد أثاره الطيش والشهوات والطمع من الجانبين وان نتائج هذه الحروب كان الندم ولات ساعة مندم عند كلا الفريقين

ففي تاريخ العالم حروب دينية . وقد جزنا نحن هـذا الطور . ولكني لست واثقاً من انه لم يكن لتلك الحروب ما يبررها من التعللات التي نجدها في الحروب الأخرى المدونة في التواريخ . فذلك الجنون الذي قاد الامم الى الحروب الدينية هو الذي ساقها بعد ذلك الى حروب أخرى غير دينية . فقد جرت حروب بين اعضاء الاسر المالكة ينازل بعضهم بعضاً و يسفكون دماء الامم التي يتقاتلون من أجل الاستئثار بالتسلط عليها . واعتقادي اننا قد جزنا هذا الطور ايضاً . وهناك حروب أبعد مدى وأخطر أثراً مما ذكرنا وهي تلك التي تهاج لأجل التوسع والامتلاك . ولست أشك بان بواعث هذه الحرب طبيعية في الانسان ولكنها بواعث اجرامية مخطرة واني شديد الاسف لما أجد الآن في أيامنا الراهنة من ان الرغبة في الامتلاك والتوسع لا تزال حية في قلوب امم تعيش في أقدم بلاد اوربا حضارة

ولكني أريد أن الفت نظركم الى الكيفية التي صارت بها هذه الرغبة في الامتلاك والتوسع سبباً في سفك الدماء واثارة الحروب بدرجة تفوق ما كانت عليه قبلا . فانما كان ذلك وقت أن شرعت الدول الاوربية في الاستعمار . كأنما قد ظهر لهم ان هـذه الدنيا قد ضاقت بهم . لقد كنا نظن عند ما ننظر الى سعة هـذا العالم

وعندما نجد ان قليلا منه مأهول الآن . وأقل منه كان مأهولا قبلا منذ قرن او قرنين من الزمان نرى انه لم يكن هناك ما يدعو الى الشجار لأن في هذه السعة مندوحة عنه . ولكن الاستعمار على الرغم من ذلك كان سبباً في الحروب الدموية مع جيراننا . وكان أساس هذه الحروب تلك الشهوة القديمة ـ شهوة التوسع وامتلاك الاراضين . وبما ان احوال اوربا كانت قد استقرت واطمأنت ولم تجد الدول متسعاً لمرضاة شهواتها في التوسع فيها كما كانت تجد لو كان الوقت وقت همجية وفوضى ذهبت بسلاحها وجيوشها عبر المحيط الاطلسي فنشبت هناك الحروب من أجل التوسع والامتلاك

وهذا كان من شر أغلاط الانسان واليه تعزى أكثر حروب القرن الماضي . ولكن لو عرف آباؤنا كما نعرف الآن نعمة التجارة والتبادل الحر للبضائع لكانوا اذن في غنى عن جميع تلك الحروب . اذ ماذا كانوا يقصدون من تلك الحروب ؟

كانوا يرمون الى الاستعمار ولكن الغاية البعيدة التي كانوا ينظرون اليها في الاستعمار لم تكن الامتلاك فحسب وانما كانت زيادة ارباح الامة من التجارة بين المستعمرات و بين الدولة المالكة لها . ولهذا لم يكن خطا الاستعمار قاصراً على أمة واحدة فان جميع الامم سواء في ارتكاب هذا الخطأ

هكذا كان خطا اسبانيا في مكسيكا وخطأ البرتغال في البرازيل . وخطا فرنسا في كندا ولويزيانا . وكان خطأ انجلترا في استعمارها الهند الغربية والشرق . وكان جماع الخطا في اعتقاد الجميع بانه متى استعمرت احدى البلاد القاصية صارت تجارتها وارباح هذه التجارة

وقفاً على الدولة المالكة لهذه البلاد دون أن ينال غيرها منها شيئا . وكانت الحروب نتيجة هذا المذهب . لأن جميع الدول صارت تعتقد ان الاستعمار لا قيمة له ما لم يقصر امتياز التجارة على الدولة المالكة ومستعمراتها. ومن هنا نشأت أطماع الدول في الغارة على مستعمرات غيرها للحصول على هذا الامتياز

لقد قضى ذكاء الانسان المضلل في ذلك الزمن الذي أشرت اليه أن تكون التجارة التي يجب أن تكون سبيل الرابطة بين بني البشر سبباً في إثارة الحروب وتبريرها هنا في بلادنا وغير بلادنا نبررها عند الشروع فيها ونتمجد بها عند ختامها فنأخذ من الجار مستعمرته ونعتبر هذا العمل توسيعاً للمعاملات التجارية وترقية للصناعة في بلادنا . لقد كان هذا خطأ مخطراً جنونياً . وهو أحرى بهذه الصفات اذا اعتبرنا اننا نزعم إننا قد اقلعنا عن الطرق القديمة التي مارسها الانسان في العصور الاولى ـ طرق الغزو والنهب ومللنا الى الصلح والسلام . ولكنني أرتاح الآن الى القول بأننا قد افلتنا من هذا الزعم الخادع . أجل ليس من الحكمة ان نفخر على آبائنا. لقد كانت أخطاؤهم تنسل اليهم انسلالا فلا يلحظونها ولا يقدرون جرائرها . ولعلنا نحن أيضاً في هذا المركز تتسرب الينا الاخطاء فلا نحس بها . وحقيق بنا أن نتواضع عند ما نقارن انفسنا بالبلاد الاجنبية الآن أو بالدول السابقة في العصور الماضية وان نقنع بالحمد عند ما نرى خطأ قد صحح وعلينا أن نصمم بألا تعود هذه الاخطاء الى الوجود بل علينا أن لا ننى عن معونة اولئك الذين لا يزالون يعتقدون صحة هذه الاوهام . ولست في حاجة الى القول بخصوص مستعمراتنا انها لم تعد سبباً في الحروب لاننا قد انتهينا الى الاعتقاد

بأن عظمة هذه البلاد لا تتأكد من حيث العلاقة مع هذه المستعمرات إلا اذا جعلناها تتمتع بجميع الحقوق والميزات التى نتمتع نحن بها . واذا اتفق أن وجدنا عدداً كبيراً من السفن الاميركية تتجر في كالكوته فلن يكون في هذا ما يهيج فينا عواطف الحسد بل على العكس نمتلىء سروراً . لان معنى هذا زيادة ثروة الامبراطورية الهندية وسعادة أهلها وكلما زادت هذه الثروة وهذه السعادة عاد علينا ذلك بالربح بواسطة التجارة

خطبة لبسمارك

كان بسمارك (١٨١٥ — ١٨٩٨) « رجل الدم والحديد » جمع شمل الدويلات الالمانية العديدة تحت علم واحد هو علم الامبراطورية بقيادة بروسيا وكان رأسه من أضخم الرؤوس كما ثبت ذلك بعد تشريح جثته عند وفاته . فاذا كان ذكاؤه يعزى الى ضخامة هذا الرأس أو لا يعزى اليها فالواقع أنه كان من أذكى السياسيين . يدس الدسائس ويدبر الحروب بمهارة الابالسة . فحارب دانماركا والنمسا وفرنسا وتغلب عليها وفي سنة ١٨٧١ في عقر دار المهزوم في فرساي توج ملك بروسيا امبراطوراً على المانيا . فلما تولى الامبراطور غليوم (الذي يعيش الان منفياً فى هولانده) حسده على عظمته ورأى فيها ما يكسف ضوءه فأخرجه من الحكومة

والقطعة التالية مختارة من خطبة ألقاها بمناسبة مشروع الدستور الالمانى الذي قدمه البرلمان الثوري ولم يكن هذا المشروع وفق هوى بسمارك لانه لم ينص على سيادة بروسيا . قال :

ايها السادة . لقد آلمني أن أرى هنا بروسيين بالحقيقة لا بالاسم فقط يعضدون مشروع الدستور هذا بقوة وحماسة . ولقد شعرت بالهوان والصغار كما يشعر بهما الالوف من أبناء وطني عند ما رأيت ممثلي الامراء الذين احترمهم في مقاماتهم الرسمية الشرعية ولكنني

لا أدين لهم بطاعة أو ولاء قد صاروا بهذا الدستور سادة ذوي سلطان . ومما زاد مرارة هذا الشعور اننا في افتتاح المجلس رأينا المقاعد مزينة برايات تخالف رايات الامبراطورية الالمانية بل كانت على العكس من ذلك مدة السنتين الماضيتين شارة الثورة والتمرد . وهي رايات لا يحملها في ولايتنا باستثناء الديمقراطيين سوى الجنود . يحملونها طاعة للاوامر والاسى ملء قلوبهم

أيها السادة . انكم اذا لم ترضوا الروح البروسية في هذا الدستور فاني اعتقد انه سيبقى حبراً على ورق . واذا أنتم حاولتم أن تسوموا البروسيين الاذعان لهذا الدستور فانكم ستجدون منهم ما وجده الاقدمون من جواد الاسكندر ، بوكيفالوس ، الذي كان يحمل مولاه ويسير به جريئا مبتهجا بينما هو كان يقذف الفارس الذي يتطال الى امتطاء صهوته ويلقيه على الرغام يتمرغ بذهبه وفروه وسائر حليه وملابسه . ولكن يعزيني الان اعتقادي الراسخ بأن الوقت لن يطول حتى تنظر الاحزاب المختلفة الى هذا الدستور كما نظر الطبيبان في أسطورة لافونتين الى جثة المريض الذي كانا يعودانه . اذ يقول أحدهم : « لقد مات . ولقد تنبأت بذلك منذ رايته » . فيقول الآخر : « لو انه استمع لنصيحتي لما مات »

خطبة لجون برايت

كان جون برايت (١٨١١ ـ ١٨٨٩) من احرار الانجليز ساعد غلادستون الايمن يعضده في كل مشروعاته وينافح عن سياسته . وكان خطيباً مفوها « قد منحه الله عطية الصوت اذا خطب سمعت منه موسيقى فصيحة تثور الى اعماق الشجن وترتفع الى قمم الغضب »

وقد اخترنا القطعة التالية من خطبة له القاها في سنة ١٨٥١ عن عبء الانظمة الحربية وما تكلف الامم من باهظ النفقات . قال :

اني أعتقد ان عظمة الامة لا تدوم الا اذا ثبتت على أسس الاداب ولست أبالي بالعظمة الحربية أو الذكر الحربي . وانما احق بالمبالاة والعناية أفراد الامة التي نعيش في ظهرانيها وأحوالهم . انكم تعرفون انه ليس في انجلترا من هو أبعد مني عن قول السوء في التاج والملوكية . ولكن اعلموا ان التيجان والصولجانات والالوية الحربية والمستعمرات الواسعة والامبراطوريات العظيمة هي كلها في رأيي هباء كالهواء لا تستحق النظر والاعتبار الا اذا كانت الأمة حاصلة على نصيب كاف من الرفاهية والرضى والسعادة . فان الأمة لا تتألف من القصور والآطام والابهاء والدور الفخمة . فالأمم في جميع البلاد تعيش في الاكواخ واذا لم يضيء الدستور هذه الاكواخ واذا لم تصل السياسة الرشيدة اليها وينطبع أثرها على أحوال سكانها وشعورهم فثقوا بانكم لم تتعلموا بعد واجبات الحكومة

لقد حكى لنا أقدم المؤرخين ان الاسكيثيين كانوا في زمنه أكثر الشعوب ميلا الى الحروب وانهم قد رفعوا صولجانا على منصة رمزاً «لمارس» اله الحرب ولم يشيدوا لأحد من الآلهة مناسك الا لهذا الاله . والآن أراني اتساءل عما اذا كنا نحن قد تقدمنا على هؤلاء الاسكيثيين . اذ ماذا ننفق الآن على البر والتربية والاداب والدين والعدل والحكومة المدنية وما هو هذا الذي ننفقه في جانب نفقاتنا الحربية التي نقدمها ضحية على مناسك مارس ؟

منذ ليلتين خطبت طائفة كبيرة من المستمعين في هذه القاعة .

وكانت هـذه الطائفة مؤلفة الى حد عظيم من ابناء وطنكم الذين ليس لهم حقوق سياسـية لا تبدو أنوار الفجر حتى يشرعوا في الانكباب على أعمالهم لا يتحولون عنها حتى المساء . ليس لهم من الاسباب والوسائل ما يعينهم على تفهم هـذه المسائل المهمة . اما الآن فقد وفقت الى اسماع طائفة أخرى . فانكم تمثلون تلك الطبقة التي امتازت بتربية أوفى وحصلت على قدر أكبر من الذكاء في فهم بعض المسائل وفي ايديهم النفوذ والسلطة . . . ان في مقدوركم تكوين الاراء وايجاد السلطة السياسية ولن يخطر ببالكم فكر حسن عن هـذا الموضوع تفضون به الى جيرانكم . ولن تحدث بينكم و بين من تجتمعون بهم مناقشة تدلون فيها برأيكم حتى تؤثروا على سير حكومتكم اثراً سريعاً محسوساً

وهل تسمحون لي بان أطلب اليكم ان تعتقدوا كما أعتقد أنا اعتقاداً راسخاً ان القوانين الادبية لم تسن للافراد بل هي ايضاً قد كتبت للامم مهما كبر شأنها ، مثل هذه الأمة التي نحن أفرادها . واذا سخرت الامم بهذه القوانين الادبية ورفضت طاعتها فهناك العقاب الذي لا مفر منه . وقد لا يقع بها العقاب على الفور . بل قد لا يقع في حياتنا ولكن ثقوا بأن ذلك الشاعر الايطالي قد قال حقاً ونطق عن وحي نبوة عند ما قال : « سيف الله لا يتعجل ولكنه لا يتأخر »

خطبة لبوكر واشنطون

كان بوكر واشنطون (١٨٥٨ — ١٩١٥) زنجياً ولد في حجر العبودية في الولايات المتحدة الاميركية . فلما الغى الرق وجد نفسه صبياً معدماً .

فالتحق باحدى الكليات يخدم فيها ويتعلم . ثم ترك الكلية مشيعاً بصداقة جميع الذين عرفوه . وتعين ناظراً لاحدى مدارس الزنوج وكانت مكتباً صغيراً ليس به سوى ثلاثين تلميذاً . فأخذ في ادارة المدرسة بهمة ومثابرة مدة عشرين عاماً يعلم فيها شباب الزنوج ويمدنهم ويثقفهم حتى صار عدد تلاميذه ١١٠٠ تلميذ وصارت قيمة مباني مدرسته وأموالها أكثر من مائة الف جنيه . قال عنه أحد الاميريكيين البيض : « لقد عاش بيننا ردحاً طويلا من الزمن نبيل اميركي ذو بشرة سوداء ولد عبداً وضيعاً فرفع نفسه بقوة الخلق العظيم حتى صار وطنياً مكرماً يعجب به كل رجل ذي أريحية في كل مكان »

وكان واشنطون خطيباً مطبوعاً يخطب كما يتكلم فلم يكن يزين الفاظه بعبارات البديع أو يلجأ الى الخلابة لان دعوته لم تكن ترمي الى الاغراء أو الاغواء فان غايته كانت الحق واقناع سامعيه به . وقد القى الخطبة التالية في أحد المعارض في سنة ١٨٩٥ . قال :

ان ثلث السكان في جنوب الولايات المتحدة من الزنوج . فليس ثم مشروع يقصد به اصلاح الاحوال المادية أو الادبية او المدنية لهؤلاء السكان يمكن واضعيه ان يهملوا فيه شان شعبنا الذي ننتمي اليه . واني ايها الرئيس والمديرون انما أنقل اليكم عواطف سواد الشعب الزنجي عندما أقول انكم عنيتم بتمثيل رجولة الزنوج تمثيلا سخياً في هذا المعرض الفخم في جميع ادوار تقدمه . وهذا العمل سيزيد الصداقة التي تربط شعبي الولايات المتحدة متانة أكثر من اي عمل آخر منذ تحريرنا

وليس هذا كل الفوائد التي سنجنيها من هذا المعرض . فان فيه فرصة قد أتيحت لنا لكي نفتتح بيننا عصراً جديداً للتقدم الصناعي . لقد بدأنا حياتنا في عهدنا الجديد ونحن مغمورون بالجهل والغرارة لم نكسب علماً ولا تجربة . فلم يكن غريبا أن نبدأ من القمة لا من القاعدة . فصرنا نطمع في الحصول على مقعد في البرلمان أو في

مجلس الولاية التي نعيش في كنفها ونؤثر هـذا على شراء العقار أو على تحصيل الفنون الصناعية . فكانت السياسة والخطابة تغوينا فننزع اليها ونهمل الزراعة أو صنع الالبان

لقد حدث مرة ان احدى السفن الضالة في عرض البحار لمحت سفينة أخرى موالية قد ارتفعت لها على ثبج الامواج . فارسلت اليها اشارة عن صاريها تقول : « الماء . الماء . نحن نهلك من العطش » فجاءها الرد من السفينة الاخرى : « القوا دلوكم حيث أنتم » فاعادت السفينة المنكوبة اشارتها : « الماء . الماء . نحن نهلك من العطش » فجاءها الرد ثانياً : « القوا دلوكم حيث انتم » وتكررت الاستغاثة مرة ثالثة ورابعة فكان الرد لا يتغير . وأخيراً رأى ربان السفينة المنكوبة أن يستمع لاشارة السفينة الاخرى . فالقى دلوه ورفعه اليه واذا بالماء عذب رواء واذا بالسفينة تمخر عباب نهر الأمازون عند مصبه . فالى اولئك الافراد الذين تجمعني واياهم الوحدة القومية والذين يطمحون الى ترقية احوالهم في بلاد أجنبية والذين يبخسون قيمة تحسين العلاقات الودية بينهم وبين جيرانهم من البيض اقول : « القوا دلوكم حيث أنتم » القوه وصادقوا جميع الناس الذين تعيشون بينهم كائنة من كانت الشعوب التي ينتمون اليها

أقول القوا دلوكم في الزراعة والصناعة والتجارة والخدمة المنزلية وسائر الصناعات . وبهذه المناسبة يجب ان تتذكروا انه مهما كانت خطايا أهل الجنوب وذنوبهم نحو الزنوج ففي بلاد الجنوب وحدها يمكن للزنجي أن يجد الفرصة السانحة لكي يندمج في العالم التجاري . وهذا المعرض لسان ناطق بهذه الفرصة . وان اعظم

ما نتعرض له من الاخطار هو اننا في وثوبنا من العبودية الى الحرية قد ننسى انه يجب على سواد الشعب الزنجي أن يعيش بكد يديه . أو ننسى ان رقينا سيكون بنسبة اكبارنا وتمجيدنا للكد والكدح وبنسبة ما نصرف من مهارتنا وأذهاننا على الصناعات الوضيعة . وان رقينا سيتوقف على التمييز بين الحقائق والاوهام في هذه الحياة وبين ما هو نافع مقيم وبين ما هو زينة زائلة . ولن يرقى شعب حتى يتعلم ويعرف ان افلاح الارض فيه من الشرف والجاه ما في كتابة الشعر . ويجب ان نبتدىء من القرار لا من القمة . ثم لا ينبغي أن تلهينا ظلاماتنا عن انتهاز الفرص

اما اولئك البيض الذين يؤثرون قدوم الاجانب ذوي الألسنة والعادات الغريبة لكي يشتغلوا معهم في اسعاد بلادهم على الزنوج فاني أقول لهم كما قلت لابناء قومي : « ألقوا دلوكم حيث انتم » القوه بين الثمانية الملايين من الزنوج الذين يعيشون بينكم والذين لا تجهلون أخلاقهم وعوائدهم . الذين قد بلوتم أمانتهم وحبهم وقت عبوديتهم عندما كانت خيانة أحدهم تعني خراب البيت باجمعه . القوا دلوكم بين هؤلاء الناس الذين حرثوا أرضكم واحتطبوا لكم من غاباتكم وبنوا مدنكم ومدوا لكم السكك الحديدية وأخرجوا لكم الكنوز من بطن الارض وكانوا سبب رقي بلادكم - الذين فعلوا كل ذلك دون أن يلجأوا الى اضراب او اثارة حرب بين العمال واصحاب الاعمال . انكم ان فعلتم ذلك وعاونتم افراد قومي وشجعتموهم كما تفعلون الآن في هذا المعرض وتناولتم رؤوسهم وأيديهم وقلوبهم بالتربية والتعليم وجدتم منهم من يشتري أرضكم

الفائضة فيمتلىء بور أرضكم بالازهار والانوار كما تمتلىء مصانعكم بالعمال

وأنتم في عملكم هذا ستتأكدون في المستقبل كما كنتم في الماضي من وجودكم ووجود اسراتكم محوطين بأودع الناس واصبرهم وأكثرهم أمانة وأقلهم استياء في هذا العالم . وكما قد برهنا لكم على ولائنا لكم في الماضي نربي اولادكم ونرعى امهاتكم وآباءكم وهم في فراش المرض ونتبعهم الى قبورهم أحياناً وعيوننا تفيض بالدموع فكذلك في المستقبل سنقف الى جانبكم وسترون منا براً لا يجارينا فيه اجنبي ترتخص فيه الحياة في سبيل الدفاع عنكم وتشتبك حياتنا بحياتكم في الصناعة والتجارة والدين بحيث تتحد مصالح الشعبين . وفي مقدورنا أن ننفصل في الاشياء الاجتماعية كما تنفصل اصابع اليد ولكننا نصير كاليد كتلة واحدة متحدين في جميع الشئون الاساسية الخاصة بالتقدم المتبادل

خطبة اروزفلت

كان روزفلت (١٨٥٨ — ١٩١٩) رئيساً للولايات المتحدة الاميركية « وكان يتسم بالهمة التي لا تني . فما دام هناك شيء جدير بأن يعمل فهو عنده ينهض به دون اكتراث للعوائق . . . وكان يضيف الى نشاطه الجسمي والعقلي نشاطاً أدبياً لا يمكن لرجولة الرجل أن تتم بدونه . وكان من سمات أخلاقه شرف المقصد واحساس رفيع بالواجبات العمومية . . . ان روح الحضارة الاوربية الحقيقي كان متمثلا تمثيلا كاملا في تيودور روزفلت »

وقد القى الخطاب التالي في سنة ١٨٩٩ في مدينة شيكاغو . قال :

أيها السادة : اني في مخاطبتي اياكم وانتم رجال أكبر مدينة في الغرب ورجال الولاية التي خرج منها لنكولن وجرانت وأنتم

الذين تمثلون احسن تمثيل الصفات الاميركية في الخلق الاميركي لا أريد ان احدثكم عن مذهب الدعة المخزية . بل سيكون كلامي عن مذهب حياة الكفاح . حياة الكد والجهد . والعمل والنزاع . أريد أن أعظكم بارفع اشكال النجاح الذي لا يناله رجل الدعة ولكن يحصل عليه ذلك الرجل الذي لا يحجم عن المخاطر او المشقات او الكد المضنى وينال في اختتام من كل هذه الاشياء نصراً عظيماً

ان حياة الدعة حياة الهدوء التي تنشأ من عدم الطموح الى تأدية الاعمال العظيمة او من عدم القدرة على الكفاح هي حياة غير جديرة بامة او بفرد . اني أطلب من الامة الاميركية ما يطلبه كل اميركي ذي كرامة من نفسه ومن أبنائه . فمن منكم يرضى بان يعلم أبناءه بانه يجب ان يكون للدعة والهدوء المحل الاول من اعتبارهم وان يكونا الغاية التي يطمحون الى تحقيقها ؟

انكم يا اهل شيكاغو قد جعلتم بلدتكم هذه عظيمة . وأنتم يا أهل المينواس قد قمتم بنصيبكم في رفع اميركا الى مقام العظمة لانكم لا تقولون بالدعة ولا تمارسون مذهبها . انكم تشتغلون بانفسكم وتطلبون من اولادكم أن يشتغلوا مثلكم . فاذا كنتم ميسورين وكنتم تستحقون ثروتكم فانكم ستغرسون في نفوس ابنائكم انهم وان كانت لهم أوقات فراغ فلا يجب ان يقضوها في الكسل . لان أوقات الفراغ اذا أحسن استعمالها عادت باكبر الفوائد . لان الغني الذي لا يضطر الى الكد لمعاشه يجب عليه ان يقضي وقت فراغه في الابحاث العلمية او الادبية او الفنية او في الاستكشاف الجغرافي او التاريخي . فان هذه كلها اعمال

تحتاج اليها هذه البلاد ونجاحها جدير بأن يرفع شان امتنا

اننا لا نعجب برجل الدعة الذي يجفل من العمل . ولكننا نعجب بالرجل تتجسم فيه الجهود الظافرة . ذلك الرجل الذي لا يؤذي جاراً والذي يبادر الى معونة الصديق ولكنه مع ذلك حاصل على صفات الرجولة اللازمة في الانتصار في معارك الحياة القاسية . وليس من ينكر مشقة الفشل ولكن شر من الفشل ألا يحاول الانسان النجاح . وفي هذه الحياة الراهنة لا نحصل على شيء ما الا بالجهود . ومن ليس في حاجة الى جهد في وقته الراهن كان في حاجة اليه في الماضي وقد اختزن منه حاجته للمستقبل . فانما يتحرر الانسان من قيد الاضطرار الى العمل لانه هو أو آباؤه قد عملوا في الماضي ونجحوا . فاذا كانت هذه الحرية قد احسن استعمالها واذا كان صاحبها لا يزال يشتغل شغلاً من طراز آخر كأن يكون كاتباً أو قائداً أو يشتغل بالسياسة او بالاستكشاف فانه بعمله هذا يثبت جدارته لثروته. أما اذا كان يعتبر خلو باله من هموم الكدح للمعاش فرصة للتمتع بضروب اللذات فانه عندئذ يصير عالة على الناس ثم هو مع ذلك يجعل نفسه عاجزاً عن المنافسة والجهاد مع اخوانه اذا دارت الدوائر وتطلبت منه الاحوال ذلك. فان حياة الدعة ليست مما يرغب فيه لانها تعجز الذين يمارسونها عن العمل الجدي في هذا العالم

وكما يسري هـذا على الفرد فكذلك يسري على الامة . وانه لمن الاكاذيب السافلة ان يقال ان الامة التي لا تاريخ لها تكون سعيدة . فاسعد منها مرتين بل ثلاثا تلك الامة التي تباهي بتاريخ مجيد . والاقدام على جلائل الاعمال ونيل الفوز المجيد وان تخلل

ذلك حبوط المسعى خير من أن يعد الانسان في صف اولئك الضعاف الذين لا يتمتعون كثيراً ولا يتألمون كثيراً لانهم يعيشون في غبشة الغسق فلا يعرفون ظفراً او هزيمة . ولو ان الاميركيين الذين كانوا يؤمنون بالاتحاد في سنة ١٨٦١ كانوا يعتقدون ان السلام هو غاية الاماني وان الحرب والنزاع شر الاشياء ولو انهم عملوا بما آمنوا لكنا قد وفرنا دماء الالوف ومئات الالوف من النقود . ثم كنا الى جانب هذه الدماء وهذه النقود نوفر على النساء أحزانهن وخراب بيوتهن وكنا وفرنا على بلادنا تلك الايام السوداء عندما كانت جيوشنا تسير نحو المعركة فكانها تسير نحو الهزيمة فتملأ قلوبنا خزياً وأسفا . كان في مقدورنا ان نتجنب جميع هذه الآلام بان نحجم عن القتال والكفاح . ولكننا لو كنا قد فعلنا ذلك اذن لصرنا ضعافاً انكاسا غير جديرين بالوقوف في مصاف الدول العظمى . فلنشكر الله انه مزج دماء آبائنا بالحديد . اولئك الرجال الذين نصروا لنكولن وآمنوا بحكمته وساروا الى القتال تحت راية جرانت . فعلينا نحن أبناء الرجال الذين ارتفعوا الى مستوى تلك الايام العظيمة . نحن ابناء اولئك الابطال الذين ساروا بالحرب الاهلية الى الفوز النهائي . علينا ان نشكر الله لان نصائح الصلح قد ردت وان الآلام والخسائر والاحزان قد قوبلت دون خور . لان ختام هذه الحرب قضى على عبودية الزنوج وعاد الاتحاد وظهرت الجمهورية الاميركية العظيمة ملكة متوجة بين الامم

وليس علينا نحن ابناء هذا الجيل ان نواجه مثل هذه المهمة التي وقعت على كواهل آبائنا ولكن لنا نحن ايضاً مهماتنا و ويل

لنا اذا لم نؤدها . فلسنا نستطيع — حتى لو أردنا — ان نعيش كما يعيش الصينيون تبلى أجسادنا وعقولنا في دعة لا نهتم بما يحصل خارج حدود بلادنا نتخبط في المبادىء التجارية لا نعنى بالحياة العليا حياة الاماني والكد والاخطار نقصر جهدنا على حاجات ومنا الجسمية . حتى نرى في احد الايام كما رأت الصين ان الامة التي تعيش في هـذا العالم عيشة الدعة والسلام والبعد عن الطرق الحربية تنهزم امام الامم التي لم تفقد صفات الاقتحام والرجولة . فاذا نوينا نية صادقة أن نكون امة عظيمة فعلينا ان نمثل دوراً عظيماً في هذا العالم . وليس من المستطاع ان نتجنب مواجهة المسائل العظمى . وكل ما علينا ان نقر على نوع هـذه المواجهة ان حسناً وان سيئاً

خطبة للرئيس ويلسون

كل من يذكر الحرب الكبرى يذكر أيضاً ويلسون (١٨٥٦ —) أحد أساتذة جامعة برنستون ثم رئيس الولايات المتحدة . وقد قال أحد فلاسفة الاغريق ان الامم لن تسعد حتى تصير قادتها فلاسفة وفلاسفتها قادة . فلما صار ويلسون الى مركز الرياسة تطلع الناس ليروا ما سيجنونه من سياسة الفيلسوف . وحدث في عهده أكبر أزمة كابدها الضمير البشري في تاريخ الانسان . وهي الحرب الكبرى . وكانت في لبها حرباً مادية تستحثها الاطماع السافلة في امتلاك المال والعقار . فلم تكن تختلف عن حروب المتوحشين الافريقيين الا من حيث الكمية لا من حيث النوع . ولكن الامم المتحاربة أرادت أن تجند العواطف وتعبي القلوب . فاخترعت الفاظاً لم تكن مألوفة في الحروب السابقة مثل الحق والعدل وما اليهما . فاغتر بها الفيلسوف ويلسون وزج بأمته في هذه الحرب ونال النصر ثم جاء السلم فنالته الهزيمة . فقد حاطه ساسة أوربا وأخذوه بأساليبهم حتى خرج من قاعة المفاوضات في النهاية ولم يربح لمبادئه نصيراً

ولكن يكفي ويلسون فخراً أن يتهكم عليه مسيو كليمانصو فيقول فيه « أنه يظن نفسه أنه المسيح »

وخير للناس أن يخدعوا بالمبادىء العليا ويعتقدوا أنهم يؤمنون بها وأن تحقيقها مستطاع مثل ما فعل ويلسون من أن يؤمنوا بالحقائق وينزلوا عند حد الاطماع البشرية كما فعل مسيو كليمانصو

وفي ما يلي يرى القارىء مثالا من خطب ويلسون وموضوعه : « الحرية الجديدة » . قال :

مهما أكثرنا من التفكير في حادثة استكشاف اميركا فان هذه الحادثة لا تزال تثير خيالنا وتهتاجنا . فقد سلفت قرون كان وجه اوربا يتجه فيها نحو الشرق . فكانت طرق التجارة ودوافع النشاط تسير نحو الشرق . وكان المحيط الاطلسي أشبه شيء بالباب الخلفي للمنزل . ثم فوجيء الاوربيون باستيلاء الاتراك على القسطنطينية ووقوفهم سداً حائلا بين اوربا والشرق . فكان على اوربا اما أن تتجه نحو وجهة أخرى واما أن تقف مشلولة الحركة لا تجد منفذاً لنشاطها . وفي النهاية أقدم الناس على هذا البحر الغربي المجهول مجازفين بارواحهم وعلم سكان الارض عندئذ ان أرضهم تبلغ ضعفي ما كانوا يعتقدون . ولم يجد كولمبوس كما كان ينتظر حضارة الصين بل وجد قارة غير عامرة . ففي هذا الجزء من العالم على هذا النصف الآخر من الكرة الارضية اتيح للانسان في تاريخه الحديث ان يؤسس حضارة جديدة لها ميزة التجربة الجديدة

فمثل هذه الفرصة الفريدة جديرة بأن تحرك العواطف عند جميع من يتبصرون في غرابتها وفي قيمتها . فقد يستطيع الانسان ان يؤلف آلافاً من التواريخ الخيالية لهذه الارض ولكن لا يبلغ

خياله الى اختراع قصة يكون فيها نصف العالم مخبوءاً حتى ينضج الزمان و يتهيأ للشروع في ايجاد حضارة جديدة . فقد كان طمع ربان سفينة في الاهتداء الى طريق بحري سبباً في امتياز أدبي للانسانية . فقد قدر للانسان ان يؤسس هيئة اجتماعية جديدة في هذه الارض الميمونة التي لم يقترب منها انسان كما كان يقول السياح الا و ينتعش بهواء الغابات الملتهبة بالازهار و يطرب لخرير المياه الصافية التي تنساب بين اشجارها

فهذا النصف الآخر من الكرة الارضية كان راقداً ينتظر مس الحياة ـ حياة من العالم القديم حتماً ولكنها قد طهرت من الادران وعولجت من الاعياء لكي تليق بطهارة العروس العذراء

فكل هذا يستطير الخيال كانه رؤيا عجيبة بل تحفة جميلة لا يسخو الزمان بمثلها مرة اخرى

والآن نتساءل : ماذا كان في ما كتبه اولئك الناس الذين أسسوا أميركا مما يروج مصالح اميركا بالذات و يعود عليها بالفائدة وحدها دون غيرها ؟ هل تجدون الاثرة مكانا في هذه الكتابات ؟ كلا . فانهم انما كانوا يكتبون خدمة للمبادىء الانسانية ولتحرير الانسان . فاقاموا مقاييسهم الادبية هنا في اميركا على دعائم الأمل شعلة تستضيء بها أمم العالم وتتشجع منها . واخذ الناس يأتون الى شواطىء هذه القارة وهم يحدوهم رجاء لم يكونوا يعرفونه من قبل وثقة لم يكونوا يجرأون على الشعور بها من قبل ثم وجدوا هنا عدة أجيال مكاناً قد انتشرت فيه الطمأنينة والامن وعرضت فيه لهم الفرص وصاروا فيه مستوين . وعسى الله ـ في هذه الاحوال المرتبكة التي تحوطنا الآن ـ يلهمنا ان نرجع الى تلك المقاييس

ونقوم بمثل تلك الاعمال المجيدة التي يزدان بها ذلك العصر السعيد

لقد مرت بذهني مراراً عديدة صورة لتلك الشروط التي تتألف منها الحرية . ولبيانها لكم افرض أني اريد ان ابني آلة قوية واني في اقامة أجزائها قد جمعتها من غير مهارة او لباقة بحيث اذا اردت ادارتها وتحرك احد الاجزاء وقف في سبيل حركته جزء آخر فينتهي الحال بوقوف الآلة . فحرية هذه الاجزاء تنحصر في اجتماعها على أحسن شكل وتآلفها على احسن وجه . فاذا أردت من كابس الآلة البخارية أن يسير باكمل حريته فليس عليك سوى أن تضعه بحيث يأتلف بسائر أجزاء الآلة فلا يتعارض واياها عند الادارة . فليست حريته في أن يكون منفرداً في عزلة على حدة بل في وضعه وضعاً ملائماً موافقاً بيد ماهرة في جسم الآلة . فالحرية الانسانية هي كذلك تنحصر في الملاءمة والتوفيق بين المصالح الانسانية والنشاط الانساني

فهل نحن في هذا المعنى الجديد محتفظون بالحرية في هذه البلاد التي هي رجاء هذا العالم ؟ فالجواب على ذلك يقيناً هو اننا قد سرنا شوطاً بعيداً نحو الخيبة التي تجلب الحسرة والاسى للنفس . ونحن الآن في خطر الوقوع في الخيبة التامة الا اذا أمضينا نيتنا نحو الغاء المظالم الدقيقة الخفية ووضعنا لكل منها العقاب الذي تستحقه واياكم وخدع أنفسكم عن مبلغ نفوذ المصالح الكبرى التي تتحكم في رقينا ومدى قوتها . فان لهذه المصالح من القوة والنفوذ ما يجعلنا نرتاب في ما اذا كانت حكومة الولايات المتحدة تستطيع ان تتحكم فيها . فاذا انتم تهاونتم واكتسبت هذه المصالح صفة دائمة لنفوذها

لصار عندئذ اصلاح الحال من المحال

اني أومن بالحرية الانسانية كما أومن بنبيذ الحياة . وليس في رعاية أصحاب المصانع للامة تلك الرعاية المؤسفة وفي تنازلهم للنظر في مصالحها ما يسير بالانسان نحو الخلاص . اذ ليس للاوصياء مكان في بلاد الاحرار لأن تلك السعادة التي تأتي عن طريق القوام لا يرجى لها دوام او بقاء

ان الاحتكار الذي يرمي اليه أصحاب المصانع يؤول الى قتل جهود الافراد . واذا ألح المحتكرون في الاحتفاظ بقوتهم فانهم سيقبضون بايديهم على دفة الحكومة . ولست آمل أن يضبط هؤلاء الناس انفسهم لأنه اذا كان في البلاد أقوياء قادرون على أن يمتلكوا زمام الحكومة فهم هؤلاء الاقوياء . وعلينا نحن أن نستقر على قرار ونعتمد نيتنا على وضع أيدينا على الحكومة . وهذا لا يكون الا اذ كنا رجالا بل رجالا عظاماً

ويجب علينا أن نزرع الشعور اللطيف والرحمة في قلوب الناس وذلك بان نجرد السياسة والاعمال والصناعة من جمود الاحساس والقسوة . فيجب أن تكون السياسة من الامور التي يستطيع رجل شريف أن يمارسها راضياً لأنه يعرف ان رأيه له من المكانة في القانون مثل ما لرأي جاره وانه ليس لرئيس المصنع او للمصالح الصناعية المختلفة تأثير عليه

خطبة للويد جورج

ولد لويد جورج في سنة ١٨٦١ واشتغل وكيلا للدعاوي في ويلز وفي سنة ١٨٩٠ دخل البرلمان عضواً في حزب الاحرار وفي سنة ١٩٠٥ صار وزيراً للتجارة واحتفظ بمركز الوزارة الى ان جاءت سنة ١٩١٦ وكانت الحرب الكبرى في عنفوانها . فصار رئيساً للوزارة فرفع مستوى الجهود الحربية في انجلترا وبقي في الرياسة الى أن عقد الصلح على يده . ولويد جورج هو بلا مراء « رجل الجماهير » يسايرهم ولا يقودهم الا عند ما لا يجد خطراً في القيادة . يغريهم وقد يغويهم . ولكنه اذا عاد الى نفسه وتبين خطأه رجع عنه . وقد يكون رجوعه بعد أن تفوته الفرصة . ولكن الندم نصف التوبة . فقد أغوى الجمهور الانجليزي بضرورة محاكمة امبراطور المانيا وكسب الانتخاب بهذه الصيحة الخبيثة . ثم ندم فلم يذكرها ثانيا . وعقد صلحاً مع المانيا يقضي بفنائها . ثم ندم . فالف كتاباً يدعو فيه الى حماية المانيا من فرنسا . والخطبة التالية القاها بمناسبة دعوة صلح عرضتها المانيا حوالي سنة ١٩١٧ لم ترق الحكومة الانجليزية . قال فيها :

أقف اليوم في مجلس العموم وانا مثقل باروع تبعة يستطيع حملها أي انسان باعتباري الوزير الاول للتاج وفي وسط أكبر حرب خاضتها هذه البلاد وهي حرب يتوقف ايضاً عليها مصيرها . وقد تاكدت تبعة الحكومة وزادتها فداحة تلك التصريحات التي القاها الوزير الالماني وها انا ذا أتناول امامكم هذا الموضوع الآن . وقد جاءتنا على اثر هذه التصريحات التي القيت في الريخشتاج مذكرة من سفير الولايات المتحدة تتضمن هذه التصريحات دون أي تعليق من حكومته . . .

ولقد سرني غاية السرور ان فرنسا وروسيا قد أجابتا على هذه التصريحات الجواب الاول . وهما بلا شك لهما الحق في ان يجيبا

الجواب الاول . فان العدو لا يزال في ارضهما وضحاياهما أكبر الضحايا . وقد نشر هذا الجواب في جميع الصحف وأنا اقف هنا بالنيابة عن الحكومة لكي أوازر هاتين الحكومتين في جوابهما مؤازرة صريحة . وهنا يجب أن أقول ان الرجل او الرجال الذين يتحملون تبعة تطويل مدة حرب هائلة كهذه الحرب بدون سبب وجيه انما يرتكبون جريمة لا تغسلها عن انفسهم بحار من الدموع . ثم ان رجلا او رجالا يكفون عن الحرب لما نال انفسهم من السأم والجهد قبل ان تحقق الاغراض العظمى التي دخلنا الحرب من اجلها انما يرتكبون اثماً من الجبانة والعار لا يعدله أي اثم آخر . وهنا يليق بي ان اقتبس من ابراهام لنكولن كلمة قالها وهو في ظروف مثل هذه التي نعانيها الآن : « لقد دخلنا ونحن نتوخى تحقيق غرض شريف وستنتهي الحرب عند ما يتحقق هذا الغرض . وادعو الله ألا تنتهي الحرب الا في ذلك الوقت » فهل نحن نحقق هذا الغرض بقبولنا دعوة وزير المانيا ؟ هذا هو السؤال الوحيد الذي يجب ان نلقيه على أنفسنا

فشروط الصلح التي نقبلها هي كما قال مستر بونارلو : « رد المسلوب والتعويض والضمان بالا يحدث ما حدث من المانيا »

ولكن لكي لا تتسرب الاغلاط — ومن المهم ألا تتسرب الاغلاط في مسألة موت ملايين وحياتهم — يجب أن أقول ان ما نطلبه هو رد المسلوب باجمعه . والتعويض التام . والضمانات الناجعة . فهل نطق وزير المانيا بكلمة تدل على انه يقبل هذه الشروط ؟ فهل المح الماعاً الى رد المسلوب ؟ وهل اقترح شيئا بشأن التعويضات ؟ وهل قال شيئاً يدل على ضمان المستقبل من أن

تحدث فيه مثل هذه الحرب الفظيعة تفاجىء بها المانيا الأمم عند ما تجدان الفرصة سانحة ؟ كلا . فان مادة خطبته وأسلوبها ينكران القواعد التي لا يمكن لصلح ما أن يقام على غيرها . فهو لا يعرف للآن ولا يشعر ان المانيا قد جنت على حقوق الأمم الحرة . فاصغوا الى قوله هـذا : « ان دولتي الوسط لم تحيدا عن الاعتقاد لحظة واحدة بأن احترام حقوق الامم الحرة لا يتناقض ومصالحهما الشرعية وحقوقهما » . فمتى عرفتا احترام حقوق الأمم الاخرى عند ما دخلت جيوشهما في بلجيكا ؟ لقد قيل ان ذلك كان دفاعا عن النفس . فلعل الالمان قد رأوا انفسهم مهددين بخطر غزو الجيوش البلجيكية الجرارة لبلادهم فغزوا هم بلجيكا وأحرقوا بلدانها وقراها وذبحوا الالاف من سكانها كباراً وصغارا واسترقوا بعد ذلك من بقي من الاحياء . فما هو الضمان لكي لا تعاد مثل هذه الافاعيل حتى اذا تعاقدنا في صلح علمنا ان هـذا الصلح قد ختم روح الحرب البروسية . وهل نحن نستطيع اذا لم نحاسبهم على ما جنوه من الفظائع في البر والبحر أن نصافح اليد التي ارتكبت هـذه الاثام دون أن يدفع التعويض عنها ؟ ان علينا ان نطالب بالتعويض وقد شرعنا في ذلك . اننا تكلفنا كثيراً في هذه الحرب فنحن مضطرون الى الحصول على التعويض حتى لا نترك لاولادنا هذا الميراث السيء

واذا كنت في هذه الحرب لم أكترث للدعوة الحزبية فذلك لأني قد تحققت منذ اللحظة التي هدرت فيها المدافع وصبت الموت على بلاد صغيرة وديعة ان الالمان قد تحدوا الحضارة وقد أوقفونا حيال مسالة تعدو الاعتبارات الحزبية . وهي مسألة يتوقف على

تسويتها حظ الناس في المستقبل عند ما تتساقط الاحزاب الراهنة كالاوراق الجافة الميتة . فهذه اذن هي المسالة التي يجب أن تبقى ماثلة امام الامة وذلك لكي لا تعتري الشكوك عقائدنا ولا التردد قضيتنا . وفي كل حرب طويلة يجيء وقت ينسى فيه الناس وهم في وغرة القتال وحدة الشهوات ذلك القصد السامي الذي ادخلوا الحرب من اجله . فان هذه الحرب نزاع لاحقاق الحقوق الأممية والشرف وحسن النية بين الدول . وهذه هي الطريق التي تؤدينا نحو السلام على الارض والارادة الحسنى بين الناس . فقد هدمت الاسوار التي كد في بنائها اجيال من الناس لكي يصدوا بها تيار الهمجية ولو لم تدخل بريطانيا بقوتها الى هذه الثغرة التى انفتحت فى اوربا لغمر هذه القارة فيضان من التوحش والجبروت المطلق

ان انتصار بروسيا يدع الانسان فى حمأة من الفظائع و يقضي على روح الانصاف بين الأمم وعلى نمو هذا الشعور الذي يقضي بحماية الضعيف من القوي كما يقضي ايضاً على هذا الشعور الاقوى بان للعدالة شيئاً ينصرها اسمى من الشره وأن انتهاك حرمة المعاملة الحسنة بين الأمم الكبيرة او الصغيرة يجلب على المنتهك العقاب العاجل الصارم . وهذا هو السبب فى انني منذ بداية هذه الحرب لم اضع نصب عيني سوى قصد سياسي واحد قد جاهدت فى سبيله وهو تخليص النوع البشري من اعظم نكبة نزلت به توشك ان تقضي على سعادته